

المكتبة الفارسية

قصة الحضارة الفارسية

الدكتور
ابراهيم امين الشواربي

قِصّة الحَضَارة الفارِسيّة

نقلا عن كتاب « قصة الحضارة »

تأليف : ول دورانت

ترجمها إلى العربية

الدكتور

ابراهيم امين الشواربى

المدرس بكلية الآداب ومعهد اللغات الشرقية
بجامعة فؤاد الأول

الناشر مكتبة الخانجى

١٩٤٧

" The Story Of Civilisation "

By " Will Durant "

NEW YORK 1942

مقدمة المترجم

هذه فصول منقولة من كتاب « قصة الحضارة » الذى أصدره الأستاذ المؤرخ « وِل دورانت » بمدينة نيويورك فى سنة ١٩٤٢ .

وتشتمل هذه الفصول على « قصة الحضارة الفارسية » كما رواها الأستاذ « دورانت » فى الباب الثالث عشر من كتابه الكبير الذى جعله موسوعة تاريخية مفصلة ، تضمنت الحديث المستفيض عن « تراث المشرق » وما اشتمل عليه من حضارات السومريين والمصريين والبابليين والآشوريين والحيثيين واليهود والفرس والهنود والصينيين واليابانيين .

وقد استطاع الأستاذ « دورانت » بمهارته التى اتصف بها ، أن يعرض علينا قصص هذه الحضارات فى أسلوب رصين شيق ، يمتاز بطلاوة الحكاية وطرافة الرواية والتعمق فى اختيار الموضوعات والتدقيق فى ذكر الأخبار والتفصيلات . ومكنته براعته فى دراسة التاريخ من أن يضمّن إبحاثه جميعاً كثيراً من التحقيقات الفنية الحديثة دون أن يشعرنا أثناء عرضها بشىء من الملل والسأم اللذين يصحبان عادة مثل هذه الأبحاث العلمية العويصة ؛ فالتاريخ كما فهمه « دورانت » وأضرابه ، قصة ممتعة ، يستطيع المؤرخ النابه أن يرويها لسامعيه فى يسر وهوادة ، فيجعل منها مجموعة من الأحاديث الطريفة الشيّقة التى ترتبط أجزاؤها ارتباطاً وثيقاً يدعو إلى الامتاع والاقناع و إلى الاعجاب بلباقة المحدث و براعة الحديث .

وقد جرى « دورانت » على هـذا النهج فى سائر كتبه وأبحاثه ، فوجدناه مؤرخاً رشيق العبارة ناضج التفكير فى كتابه « قصة الفلسفة » الذى أصدره فى لندن فى سنة ١٩٢٦ ؛ ووجدناه محـدثاً من الطراز الأول فى « قصة الحضارة » التى أصدرها فى سنة ١٩٤٢ ؛ كما وجدناه مؤرخاً غزير المـادة وافر الموضوع فى كتابه الأخير «قصة الحضارة الرومانية» الذى أصدره فى نيو يورك سنة ١٩٤٤

وليست هذه هى المرة الأولى التى نقدم فيها الأستاذ « دورانت » للقارىء العربى ، فقد سبقنى إلى هذا الفضل أستاذى الجليل صاحب العزه أحمد أمين بك فى مقدمة كتابه «قصة الفلسفة الحديثة » فذكر مقدار ما أصابه هذا الأستاذ من « توفيق فى عرض مسائل الفلسفة وتحليل رجالها فى أسلوب رشيق و بيان واضح »

فإذا أقدمت اليوم على نشر هذه الفصول المتعلقة بـ « قصة الحضارة الفارسية» كما رواها الأستاذ دورانت ، فأنا لا أفعل أكثر من أن أقدم للقارىء العربى مثالا من كتابات هـذا المؤرخ الاجتماعى الـكبير ، لعل فى ذلك ما يشحذ الهمم على ترجمة كتبه كلهـا أو بعضها ، وعلى الخصوص كتاب « قصة الحضارة » لارتباطه بحضارات مشرقنا الخالد العتيد .

و « قصة الحضارة الفارسية » بعد ذلك كله قصة شائقة ، يستطيع القارىء العادى أن يجد فيها المتعة واللذة اللتين تشتمل عليهما أجود الأبحاث التاريخية سبكا وأبرعها أسلوبا ، كما يستطيع القارىء المتخصص فى الدراسات الشرقية أن يجعل منها نواة لأبحاث علمية كثيرة تتصل بحضارة « فارس » فى أقدم عصورها وأبعد أزمانها ؟

القاهرة : فى ٢٧ رجب سنة ١٣٦٦
١٦ يونيه سنة ١٩٤٧

محتويات الكتاب

المكتبة الفارسية

مجموعة من الكتب يصدرها الدكتور ابراهيم أمين الشواربى ليعين القارىء على دراسة الفارسية وآدابها والاطلاع على مابها من درر روائع وفرائد زواهر .

صدر منها حتى الآن الكتب والأبحاث العلمية الآتية :

١ — القواعد الأساسية لدراسة الفارسية .

وهو أول كتاب وضع بأسلوب علمى حديث لتعليم اللغة الفارسية لأبناء العربية ، وهو مطبوع بلجنة التأليف والترجمة والنشر فى سنة ١٩٤٣ م

٢ — أغانى شيراز أو غزليات حافظ الشيرازى (فى جزءين كبيرين)

وهو عبارة عن أول ترجمة عربية لديوان حافظ الشيرازى تقع فى جزءين كبيرين ، طبعا بلجنة التأليف والترجمة والنشر ، الأول منهما فى سنة ١٩٤٤ والثانى فى سنة ١٩٤٥ م .

٣ — حافظ الشيرازى .

وهو عبارة عن دراسة واسعة مفصلة لأحوال هذا الشاعر الأيرانى الكبير ، تضمنت وصفاً مسهباً لموطنه وعصره وظروف حياته ومواضيع فلسفته ومحتويات ديوانه .

وقد طبع هذا الكتاب بدار المعارف ومطبعتها سنة ١٩٤٤ م .

٤ — حدائق السحر فى دقائق الشعر :

أول كتاب فى علوم البلاغة الفارسية ، وضعه باللغة الفارسية أصلاً رشيد

الدين محمد العمرى «الكاتب البلخى المعروف بالـ «وطواط» المتوفى سنة ٥٧٣هـ وقد نقلناه إلى العربية لأول مرة فى سنة ١٩٤٥ م وطبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٥ — قصة الحضارة الفارسية .

بحث طريف فى أسلوب ممتع ، نشره الأستاذ «ول دورانت» بالانجليزية ضمن كتابه « قصة الحضارة » وقد نقلناه إلى العربية وطبعناه على حدة فى مطبعة السعادة سنة ١٩٤٧ م .

٦ — بحث فيما نقله الجاحظ من أخبار الفرس .

منشور فى مجلة كلية الآداب بالجزء الثانى من المجلد الرابع سنة ١٩٣٩ م.

٧ — مصادر فارسية فى التاريخ الاسلامى .

بحث على مطول منشور فى مجلة كلية الآداب بالمجلد السابع سنة ١٩٤٢ م .

٨ — نشأة الشعر الفارسى الاسلامى .

بحث على منشور فى العدد الثامن من مجلة كلية الآداب بالمجلد الأول سنة ١٩٤٦ م .

٩ — رحلة فى إيران .

مقالات منشورة بمجلة الراوى الجديد بالسنة الثامنة سنة ١٩٤٣ م .

وتطلب هذه الكتب والأبحاث من « مكتبة الخانجى » بشارع عبد العزيز بالقاهرة

قصة الحضـــارة الفارسية

نقلا عن كتاب « قصة الحضارة »

تأليف : وليم دورانت

ترجمها إلى العربية

الدكتور ابراهيم أمين الشواربي

المدرس بكلية الاداب ومعهد اللغات الشرقية

بجامعة فؤاد الأول

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

١٩٤٧

" The Story Of Civilisation "
By " William Durant "
NEW YORK 1942

١

المـــيديون

ارتفاع أمرهم وزوال دولتهم
أصولهم وحكامهم
معاهدة سرديس الدمويه
دور الانحطاط

من هم الميديون الذين لعبوا دورا هاما فى تحطيم الآشوريين . . ؟

أما أصلهم فلا سـبيل لنا إلى ادراكه لأن التـاريخ كتاب كبير لا يسع القارئ إلا أن يبدأه من منتصف صفحاته . وأول ما ورد لنا من أمرهم محصور فى لوحة من اللوحات سجلوا فيها حملة « سلما نصر الثالث » على بلاد تسمى « پارسوا » فى جبال كردستان سنة ٨٣٧ ق . م وكانت هذه البلاد فيما يظهر مكونة من سبع وعشرين ولاية ، يحكمها سبعة وعشرون حاكما من الرؤساء والحكام ، وكانت قليلة السكان يقطنها شعب من الناس يسمى « أماديا » أو « ماديا » أو « الميديين » » وهم شعب من الشعوب الهندية الأروبية ، قد أقبلوا من شواطئ بحر قزوين إلى الأقاليم الأخرى من آسيا فى الفترة التى تقدمت السنوات الألف السابقة على ظهور المسيح. والزند افستا «وهو عبارة عن مجموعة النصوص المقدسة لدى الفرس» يرتفع بذكر هذه البلاد القديمة إلى درجه المثالية حتى ليصورها بصورة جنة الخلد الموعودة ؛ ولـكن الماضى دائما جميل ، وحاله فى ذلك حال الشباب بذكرياته ، فهى رائعة حقا وجميلة حقا.. بشرط الا نضطر فى وقت من الأوقات إلى أن نعيش ثانية فى هذه الفترات الماضية العابرة .

ويبدو أن «الميديين» أخذوا يجوبون أولا الإقليم المحيط بـ« بخارى» و «سمرقند» ثم أخذوا يهاجرون جنوبا إلى أن وصلوا إلى « فارس » فاتخذوها موطنا جديدا لهم، ووجدوا فى جبالها النحاس والحديد والرصاص والذهب والفضة والرخام وسائر الأحجار الكريمة ؛ وكانوا بالإضافة إلى ذلك قوما يمتازون بالبساطة والقوة والنشاط ، فاشتغلوا بتنمية الزراعة فى الأودية وسفوح الجبال والتلال المحيطة بهم .

وقد أسس « ديوسيس » أول ملوكهم عاصمته الأولى فى « إكباتانا » (١) وهى مدينة تتلاقى عندها عدة من الطرق والسبل، تقع فى واد خصيب رائع المنظر ترويه مياه الثلوج الذائبة التى تنحدر اليه من المرتفعات وقنن الجبال ؛ ثم زين « ديوسيس » مدينته هذه بقصر ملكى رائع يشرف عليها من جميع نواحيها تبلغ مساحته ثلثى ميل مربع من الأرض . وقد ورد فى مقطوعة غير مقطوع بصحتها فى تاريخ « هرودوت » أن « ديوسيس » اكتسب شهرة عريضة فى العدل والإنصاف فتمكن بذلك من الاستيلاء على أزمة الأمور ولكنه لم يلبث طويلا حتى تحول بعد ذلك إلى حاكم مطلق شديد الاستبداد والعتو ، فكان مما اصدره من أوامر ألا يسمح لأحد من عامة الناس بالدخول إلى حضرته والمثول بين يديه ، وعلى من يريد أن يعرض عليه أمرا من الأمور أن يلتمس ذلك بواسطة الرسل والمندوبين ، وجعل من أشد أنواع القحة أن يضحك شخص أمام الملك أو يبصق أثناء وجوده، وأخذ يحوط نفسه بمختلف المراسم والتقاليد لكى

---

(١) هى مدينة « همدان » الحالية .

يبدو لمن لم يره رأى العين مختلفا فى طبيعته عنهم وعن سائر الناس أجمعين .

وقد قوى شأن « الميديين » بفضل حياتهم الطبيعية والاقتصادية ، واشتدت شوكتهم بفضل ما أملته عليهم لوازم الحرب وما يتصل بها من عادات وظروف . فاستطاعوا تحت قيادة « ديوسيس » أن يصبحوا مصدر خطر على « آشور » . وقد تمكنت هذه الدولة الأخيرة من أن تغزو « ميديا » جملة مرات وظنت أنها حطمتها تحطيما منظما لاقومة لها من بعده ، ولكنها لم تلبث أن وجدتها لا تمل القتال دفاعا عن حريتها واستقلالها ، حتى تمكن فى النهاية «سيا كزارس » وهو أكبر ملوك « ميديا » إطلاقا،من أن يحسم الأمور بينه وبين الآشوريين بتحطيم مدينة « نينوى ». وأوحى له هذا الظفر المؤيد بأن يقود جيشه فيجتاح الأراضى الواقعة فى غرب أسيا ويصل إلى أبواب « سرديس» ولكن منعه من الاستيلاء عليها كسوف أصاب الشمس عند وصوله اليها ،جعل جماعة من القوادالمعارضين يحسون بالرهبة والخوف أمام هذا النذير الذى انذرتهم به السموات ، فرضوا طائعين بإمضاء معاهدة الصلح ، وأبرموها على رشف الجرعات التى تناولها كل منهم من دم أخيه ، وبعد ذلك بسنة واحدة توفى « سيا كزارس» بعد ماتمكن اثناء حكمه من أن يرقى بمملكته من ولاية تابعة ذليلة إلى أمبراطورية واسعة عريضة تشتمل على « آشور » و « ميديا » و « فارس » . ..ولكن هذه الأمبراطورية الكبيرةما لبثت أن زالت خلال جيل واحد بعد وفاته .

وقد كانت هذه الامبراطورية قصيرة الأجل جدا بحيث لم يمكنها وجودها القصير من أن تساهم فى الحضارة بنصيب يذكر، ولم يؤثر عنها إلا أنها مهدت الطريق وعبدته للحضارة الفارسية الموشكة على الظهور . فالميديون هم الذين أعطوا

فارس لغتهم الآريه ، وهم الذين أعطوها حروف هجائهم التى تبلغ ستة وثلاثين حرفا ، وهم الذين علموهم أن يستغنوا عن قوالب الطين وان يستعيضوا عنهافى الكتابة بالرقائق والجلود والأقلام ، وهم الذين علموهم الإكثار من استعمال الأعمدة فى البنايات ، وهم الذين لقنوهم قوانينهم الأخلاقية ، وهم الذين أرشدوهم إلى أن يعتمدوا اثناء السلم على الزراعة ، وان يتفانوا اثناء الحرب فى الشجاعة ، وهم أيضا الذين لقنوهم دين « زردشت » وعرفوهم بإلهيه « أهورا مزدا » و « أهرمن » . وهم كذلك الذين علموهم تقاليد الأسرة الخاضعة لرئيسها ، وتعدد الزوجات وجملة أخرى من القوانين الشبيهة بقوانين الامبراطوريات المتأخرة التى يمكن وصفها جميعا بما ورد فى عبارة دانيال حينما قال : « إن قوانين الميديين والفرس لاتقبل التغيير والتبديل » . . . أما آداب الميديين وفنونهم فقد ضاعت جميعا ولم يبق منها حرف ثابت أو حجر قائم .

وكان انحطاط « الميديين » وزوالهم أسرع بكثير مما لزم لنشأتهم وقيامهم ، فقد برهن « استياجس » وهو الذى خلف أباه « سيا كزارس » على أن الملك مغامرة يتناوب على وراثتها أصحاب العقول الجبارة أو أصحاب العقول ذات الخلل والجنون . . وقعت فى ميراثه مملكة هادئة ، نشر الأمن لواءه عليها ، فاطمأن إلى ماورث وأخذ يتنعم بما فيها فى دعة وسكون ، واحتذت الرعية حذوه فنسى الناس أخلاقهم القديمة وطرائقهم السليمة ، وأقبل الثراء عليهم من حيث لايحتسبون ، فلم يجيدوا إستعماله ولم يحسنوا البذل والإنفاق ، وأصبحت الطبقة العليا أسيرة لأسباب الترف ومختلف البدع ، ولبس الرجال السراويل المطرزة ذات الوشى ، وأسرف النساء فى تغطية أنفسهن بمواد التجميل والحلى ، وتعدوا ذلك إلى الخيل

فألبسوها الكسى الموشاة بالقصب والذهب ، وتغير حال هؤلاء القوم ، فأخذوا يتنقلون بين الولائم والأفراح فى عربات باهظة الثمن والتكاليف ، وكانوا من قبل قوما بسطاء من الرعاة ، يحسون بشدة البهجة والسرور ، إذا استطاعوا أن يتنقلوا فى مركبات خشنة ذات عجلات غليظة ، قدت من جذوع الاشجار دون تهذيب أو تشذيب ؛ وكان الملوك «الميديون» الأولون يفخرون بالعدل والانصاف ، ولكن « استيا جس » حينما غضب على « هارپاجوس » قدم اليه جثة أبيه بعد أن مزق أوصالها ونزع عنها رأسها ، ثم اضطره إلى أن يأكل منها فأخذ «هارپاجوس» يأكل ، وهو يقول : « إن كل أمر يأتيه الملك يسره ويرضيه . . ! ! » ولكنه ما لبث أن ساعد «قورش» على عزل « استياجس » فتمكن هذا الشاب الذكى ، وقد كان حاكما على ولاية « أنشان » فى فارس من قبل الميديين ، أن يثور ضد هذا الملك المستبد المخنث الذى كان يقيم فى « اكباتانا » وأن يفوز عليه بنصر مؤزر ، رحب به الميديون أنفسهم وفرحوا له ، فقبلوه ملكا عليهم دون أن تصدر منهم كلمة واحدة من كلمات المعارضة أو الاحتجاج . وهكذا امتنعت « ميديا » بهذه الحادثة الوحيدة من أن تستمر سيدة لـ « فارس » وانقلب الحال فأصبحت « فارس » بعد ذلك سيدة لها ، وأخذت تعد العدة لتسود بلاد الشرق الأدنى برمته



رمز لاله الفرس « أهورا مزدا »



مدينة « برسبوليس » المعروفة فى الفارسية باسم « تخت جمشيد »

٢

عظماء ملوك الفرس

قورش ذو الشخصية الرائعة وأساليبه المهذبة
قمبيز
دارا الأكبر
غزو اليونان

كان « قورش » كما يقول « إمرسون » واحدا من الحكام الموهوبين الذين تبتهج قلوب الناس أجمعين عند تتويجهم ، فقد كان بطبعه ملكيا فى روحه وأعماله، حازما فى الإدارة وتدبير الأمن ، جادا فى غزواته وفتوحاته ، كريما فى معاملته للمغلوب ، محبوبا من أعدائه السابقين ؛ ومن أجل ذلك كله فقد جعله اليونان مدارا لجملة من القصص الرائعة ، واعتقدوا أنه أكبر الأبطال الذين سبقوا « الإسكندر » فى الظهور والوجود . ومما يؤلمنا حقا أن ما كتبه « هرودوت » « وكسنيفون » لا يساعدنا على تصويره صورة يمكن الوثوق اليها أو الاعتماد عليها، فالأول منهما خلط كثيرا من القصص بالتاريخ ، بينما عمد الآخر إلى جعل حياته مقالة طويلة عن الفنون الحربية، يتخللها أحيانا محاضرات فى التربية والفلسفة، وكثيرا ما اشتبه عليه الأمر فخلط بين « قورش » و « سقراط ». ولو اننا نزعنا هذا القصص الممتع وطرحناه جانبا، لبقى لنا « قورش » شبحا ذاويا لا حياة فيه، ولما أمكننا أن نقول عنه أكثر من أنه كان وسيم الطلعة جميل الهندام ، جعله الفرس إلى نهاية فنهم القديم مثالهم فى جمال الخلقة والجسد ، وأنه كان مؤسس « الدولة الأكمينيه » التى امتازت بعظماء الملوك الذين حكموا فارس فى أجمل

عصورها التاريخية وأعلاها شأناً ، وأنههو الذى نظم الجند فى«ميديا» و«فارس» بحيث أصبح جيشه لا يقهر ولا يغلب ، وأنه هو الذى استولى على«سرديس» و «بابل » وأنهى سيطرة الساميين فى غرب آسيا مدة السنوات الألف المقبلة من بعده، وانههو الذىضم إلى حوزة الإمبراطوريةالفارسية كل البلاد التى كانت فى أيدى « آشور » و « بابل » و « ليديا » و « آسيا الصغرى » فأصبحت مملكته بذلك أكبر المؤسسات السياسية التى ظهرت قبل الامبراطورية الرومانية، وواحدة من خيرة الدول التى اشتهرت فى ثنايا التاريخ بحسن الإدارة وصلاح الحكم

وصورة « قورش » فيما أحاط به من قصص وخرافات ، تبديه لنا على أنه أحب الفاتحين وأقربهم إلى القلوب ، وأنه أقام مملكته على دعائم قوية من الكرم والسخاء . وقد عرف أعداؤه أنه لين العريكة فلم يحاربوه بروح الشجاعة المستيئسة التى يبديها الرجال عند مالايجدون بدا من القتال أو الموت . ورأيناه كما ذكر « هرودوت » يخلص « كروزوس » من قبره فى « سرديس » ويجعله واحداً من أشرف مستشاريه ، ورأيناه أيضا يعامل اليهود معاملة كلها كرم وأحسان .

وأول قاعدة قامت عليها سياسته هى أن يترك الشعوب المختلفة التى تتكون منها إمبراطوريته حرة طليقة فى اختيار العبادة الدينية التى يشاؤونها والمعتقدات التى يرونها، ولاشك أنه أدرك تمام الإدراك أهميةهذه القاعدة الأولى من قواعد السياسية التى تقول بأن الدين أقوى أثرا وأبعد نفوذامن تأثير الدولة والحكومة، ولم يقدم أثناء حياته على تحطيم المدن وتخريب المعابد، بل على العكس من ذلك

أظهر كثيرا من العناية والاحترام لمعبودات الشعوب حتى خضعت له، وساهم بنصيب كبير فى الإبقاء على الأضرحة والمعابد القديمة، حتى تعلق به « البابليون » أشد التعلق، بعد ما قاوموه فترة طويلة ، لأنهم رأوه يعمل جاهدا على المحافظة على أماكنهم المقدسة ويكرم آلهتهم ومدافنهم. وكان من دأبه إذا نزل فى بقعة من البقاع أن يقدم القرابين للآلهة المحليين ، حاله فى ذلك حال « نابليون » الذى لم يضره ان يعترف بجميع الأديان والمذاهب، بل ربما فاقه فى أساليبه فأرضى جميع الآلهة وفاز بمعونتهم أجمعين . وقد شابه « نابليون » أيضا فى مسألة أخرى، هى موته مثله نتيجة لكثرة أطماعه وبعد أمانيه، فبعد ما استولى على « الشرق الأدنى » برمته أقدم على سلسلة من المعارك أراد بها أن يخلص « ميديا » و « فارس » من تدخل القبائل البدوية البربرية التى كانت تعيش فى أواسط آسيا ؛ ويبدو أنه وصل فى حملاته هذه إلى شواطئ « جيحون » شمالا و إلى حدود الهند شرقا، ولكنه قتل فجأة وهو فى أوج مجده عند ما كان يحارب الـ « مساجيته » وهم قبيلة مجهولة الأصل كانت تعيش على الشواطئ الجنوبية لبحر قزوين . وشابه قورش الاسكندر أيضاً لتمكنه مثله من أن يفتح امبراطورية واسعة الارجاء لم يعش ليتعهدها بالتنظيم والتنسيق .

وشابت أخلاق « قورش » نقيصة كبيرة ، تمثلت فيما كان يبديه أحيانا من قسوة زائدة وغلظة بالغة ، وقد ورّث هذه النقيصة ، دون غيرها من شيم الكرم والسخاء ، لابنه « قمبيز » فكان أول ما فعله هذا الابن الشاب ان أمر بإعدام أخيه ومنافسه « سمرديس » ثم أغرته ثروة مصر وغناها فطمع فى أن يمد حدود امبراطوريته الفارسية لتشتمل على شواطئ النيل ، ونجح فى ذلك

فعلا، ولكن نجاحه على مايظهر كان باهظ التكاليف والنفقات، إذ أدّى به إلى فقدان الصواب وضياع الوعى والتمييز؛ ذلك لأنه عندما استولى على « ممفيس » بسهولة زائدة، أغراه ذلك النصر اليسير على أن يرسل جيشا قوامه خمسون الف فارس إلى واحة آمون ليضمها إلى حوزته، ولكن هذا الجيش هلك برمته فى الصحراء؛ وأرسل بعثة حربية أخرى إلى «قرطاجنة» أخفقت فيما كلفت به لأن بحارة الأسطول الفارسى كانوا جلهم من الفينيقيين، فرفضوا أن يهاجموا هذه المستعمرة الفينيقية. وقد نتج عن ذلك كله أن فقد « قمبيز » صوابه وتناسى كل ما عرف عن أبيه من رحمة واعتدال، فبدأ يظهر احتقاره علنا لديانة المصريين وأمسك بخنجره فى ازدراء وامتهان فطعن به العجل الذى يقدسه المصريون ويعتبرونه الإله «أبيس» وأخرج المومياءات من مدافنها ونبش المقابر الملكية دون أن يهتم بما وراءها من لعنات قديمة، وشفع ذلك كله باحتقار المعابد و إحراق ما فيها من أصنام وتماثيل وقد بدا له انه يستطيع بذلك أن يشفى المصريين من خرافاتهم ولكن المرض سرعان ما أصابه، وانتابته فيما يظهر علة الصرع فاعتقد المصريون اعتقادا جازما أن آلهتهم قد انزلوا به ما يستحق من لعنة وعقاب، وأن دينهم قد سلم بعد هذه المحنة من كل شك وجدال . . ! ! وكأنما شاء قمبيز مرة اخرى ان يبدى مساوئ الملك، فجمع جموعا نابليونية وأقدم على قتل اخته وامراته « روكسانا »، وأردى ابنه « پركساسبس » برمية سهم من قوسه، وأمر باثنى عشر رجلا من نبلاء الفرس فدفنوهم على قيد الحياة، وحكم بالاعدام على « كروزوس » ثم ندم على فعلته، وسرّ سرورا شديدا عندما علم أن حكمه لم ينفذ فيه و بادر باستبدال هذا الحكم فأمر بمعاقبة الضباط الذين تأخروا فى تنفيذه . . ! ! ووصله الخبر أثناء رجوعه إلى

«فارس» ان احد المدّعين قد استولى على عرشه، وأن الناس يؤيدونه بثورة شاملة فاختفى منذ ذلك الوقت من صفحات التاريخ ، وقالت الروايات المتناقلة عنه أنه أقدم على قتل نفسه .

أما المطالب بالعرش فقد أدعى أنه « سمرديس » وأنه قد نجا بأعجوبة من شر أخيه « قمبيز » ولم يكن هذا المطالب فى الحقيقة إلا متعصبا دينيا من أتباع المذهب المجوسى القديم كان يسعى إلى تحطيم الديانة « الزردشتيه » التى أصبحت الدين الرسمى للدولة الفارسية ، وقد تلت ذلك ثورة أخرى أدت إلى عزله و إقصائه وانتخب النبلاء السبعة الذين نظموا هذه الثورة واحدا من بينهم هو « دارا » ابن « هشتاسبس » فنصبوه على العرش ، و بهذه الطريقة الثورية التى أدت إلى سفك كثير من الدماء بدأ عهد « دارا » أكبر ملوك الفرس وأعظمهم شأنا.

ومن الملاحظ أنه يقترن عادة بولاية العرش فى الممالك الشرقية فتن كثيرة فى القصور الملكية، يسعى بها أصحابها إلى الاستيلاء على السلطة. وكذلك ثورات فى المستعمرات التى تسنح لها الفرصة أثناء ذلك الاضطراب والفساد أو أثناء وجود الحاكم المستضعف لكى تعمل على استرداد حريتها واستقلالها . وقد مهد إستيلاء « سمرديس » على العرش، ثم مقتله بعد ذلك، فرصة سانحة للحكام التابعين لفارس ، فأخذ حكام مصر وليديا يرفضون الخضوع لها ، وثارت عليها فى وقت واحد ولايات كثيرة منها « سوزيانا » و « بابل » و « ميديا » و « آشور » و « ارمينيا » و « ساكيا » . ولكن « دارا » أسرع إلى أخضاعها جميعاً فى شدة وحزم، فحاصر «بابل» فترة طويلة ، فلما تم له الاستيلاء عليها أمر رجاله أن يصلبوا ثلاثة آلاف رجل من خيرة رجالها حتى يصبحوا عبرة للبلاد الأخرى فتبادر إلى

تقديم الخضوع والتسليم ، واتبع ذلك بسلسلة من المعارك السريعة كان لها الفضل في تهدئه الولايات الثائرة واحدة في أثر الأخرى . ولقد أدرك عند ذلك أنه من السهولة بمكان أن تصاب الامبراطورية الواسعة بأزمة من الأزمات فتتمزق أوصالها في سرعة ويسر ، فطرح أسلحة الحرب جانبا وأصبح بعد ذلك من أعقل الحكام الذين ورد ذكرهم في التاريخ ، واشتغل جاهدا في تنظيم مملكته على نسق أصبح المثال الذي يحتذى للتنظيم الامبراطوري حتى وقت سقوط روما . وكان لحكمه الفضل في إعطاء الأقطار القريبة من آسيا فترة من الرخاء والنظام لم تعهدها من قبل حينما كانت تزخر بالفتن والثورات، واصبحت جل أمانيه ان يحكم بقية أيامه في هدوء وسكون . ولكن القدر كتب على الامبراطوريات أن تكون مباءة للحروب الدائمة والفتن المتصلة ، ذلك لأن الشعوب التابعة لها يجب أن تغلب على أمرها من جديد بين الفينة والفينة ، ولأن الغزاة يجب أن يحافظوا على عاداتهم وفنونهم التي عرفوها أثناء الحرب والقتال ، ولأن الأقدار قد تبعث في أية لحظة من اللحظات بامبراطورية جديدة تأخذ في منافسة الامبراطورية القديمة ومنازعتها السطوة والسلطان ، وفي هذه الحالة الأخيرة تسعى الامبراطورية القديمة إلى خلق الحروب إذا لم تنشأ من تلقاء نفسها لتدرب النشء على إحتمال المعارك بما فيها من قسوة وغلظة واستساغة للموت من أجل الوطن والامبراطورية .

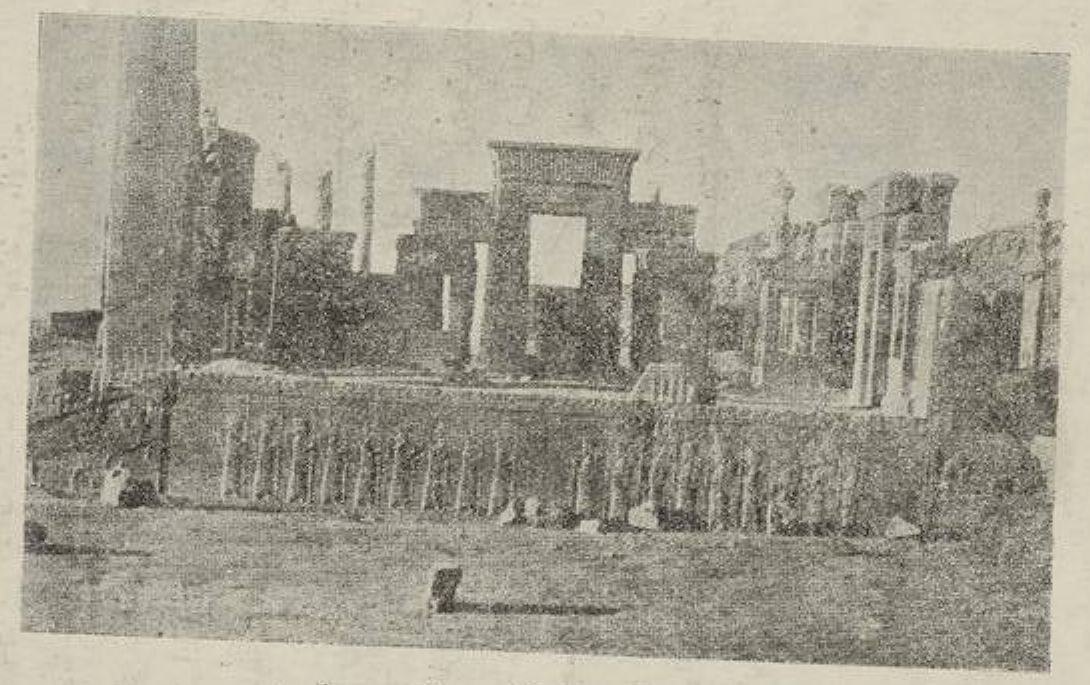
كان ذلك كله سببا من الأسباب الهامة التي دعت « دارا » إلى توجيه جيوشه إلى الولايات الجنوبية من روسيا فاجتازت البوسفور والدانوب والڤولجا لكي يخضع قبائل « السيذيين » المغيرين ، ثم انتقل بجيوشه مرة أخرى عبر افغانستان فاجتاز السلاسل الجبلية في وادي السند ، واستطاع ان يضم إلى

حوزته كثيرا من الأقطار الشاسعة الزاخرة بالأنفس والدنانير .

فأما حملته على اليونان فيجب أن نلتمس لتبريرها أسبابا أخرى أخطر من تلك التى ذكرناها . وقد شاء « هرودوت » أن يوحى لنا بأن « دارا » قد أقدم على هذه الخطوة التاريخية الخاطئة بسبب واحدة من نسائه أسمها « اتوسا » ضايقته بذكر اليونان أثناء اضطجاعها إلى جواره فى مرقده . . ! وربما كان من الأجدر بنا أن نعتقد أن هذا الملك وجد فى المدن والمستعمرات اليونانية كل المقومات البى تساعد على نشوء امبراطورية حقيقية أو إيجاد حلف فعلى يهدد سيادة الفرس فى غرب آسيا ، فلما ثارت « أيونيا »وهمت إلى نجدتها «اسبرطه» و « أثينا » اضطر « دارا » إضطرارا إلى الحرب والقتال . ولسنا نشك فى أن العالم بأجمعه يعرف قصة اجتيازه لبحر « ايجه » وكيف باء بالهزيمة فى موقعة « ماراتون » وكيف عاد كسيرا إلى فارس حيث حاول مرة أخرى أن يعد المعدات الوفيرة للغارة على اليونان من جديد،ولكنه أصيب بضعف مفاجىء قضى على حياته .



مقبرة قورش فى « بازارجادة » المعروفة فى الفارسية باسم « تخت مادر سليمان »



بقايا بعض القصور الملكية في مدينة « پرسبوليس »

٣

الحياة الفارسية

الامبراطورية ، الشعب
اللغة ، الفلاحون
الطرق والمواصلات
التجارة والصناعة

بلغت الامبراطورية الفارسية أوسع حدودها فى عهد « دارا » فكانت تشتمل على عشرين ولاية أو أمارة من بينها « مصر » و « فلسطين » و « سوريا » و « فينيقيا » و « ليديا » و « فريجيا » و « ايونيا » و « كاپادوسيا » و « سيليسيا » و « أرمينيا » و « آشور » و « القوقاز » و « بابل » و « ميديا » و « فارس » و « أفغانستان » و « بلوجستان » وجزء من « الهند » يقع غرب نهر السند وبلاد « الصغد » و « بكتريا » وبلاد « المساجيته » وقبائل أخرى من أواسط آسيا . ولم يسجل التاريخ أن مثل هذه المساحات الشاسعة قد خضعت من قبل لحاكم واحد وحكومة واحدة .

فى ذلك الوقت لم تكن « فارس » التى حكمت أربعين مليونا من الأنفس هى نفس المملكة التى تعرف لنا الآن بهذا الاسم ، وتعرف لدى سكانها باسم « ايران » ، بل كانت عبارة عن مساحة صغيرة من الأرض ، تقع مباشرة شرق الخليج الفارسى ، وتعرف لدى قدماء الفرس باسم « پارس » ولدى الفرس الحاليين باسم « فارس » أو « فارسستان » . وهذه الولاية مكونة فى أغلب أجزائها من الجبال والصحارى وتفتقر إلى الأنهار ومجارى المياه ، وتتعرض لبرد الشتاء القارس

وحر الصيف اللافح (١) ومن أجل ذلك كله لم تكن مواردها كافية لتغذية سكانها الذين بلغوا مليونين من الأنفس إلا بما كانت تجلبه اليها التجارة أو الغزوات من مساعدات خارجية . وسكانها رجال جبليون أشداء ، يرجع أصلهم كالميدين إلى العنصر الهندى الأوروبى ؛ وربما أتوا اليها من جنوب روسيا . وفى لغتهم وديانتهم المبكرة كثير من الدلائل التى تثبت وجود العلاقة الوثيقة التى تربطهم بجماعة الآريين الذين اجتازوا أفغانستان ووصلوا إلى شمال الهند وأصبحوا هناك الطبقة الحاكمة من أصحاب النفوذ والسلطان . وقد وصف « دارا الأول » نفسه فى « نقش رستم » بأنه : « فارسى بن فارسى وآرى من سلالة الآريين » . وتحدث الزردشتيون عن موطنهم الأول فأسموه « آيريانا فيجو » أى موطن الآريين (٢) واستعمل « سترابو » كلمة « آريانا » فى نفس المعنى الذى تستعمل فيه الآن كلمة « ايران » .

وكان الفرس فيما يظهر أجمل الشعوب التى سكنت بلاد الشرق الأدنى فى أقدم الأزمنة ؛ فقد صورتهم التماثيل فى صور رجال يمتازون باعتدال القامة وقوة الهامة ، قد اكتسبوا من جبال بلادهم ما عرفوا به من قوة وصلابة ، كما أكسبهم ثراؤهم كثيراً من التهذيب والكياسة ؛ قسماتهم متناسقة تناسقاً جميلا ، وأنوفهم مستقيمة كأنوف اليونان ، وعليهم سمات النبل وطيب الأرومة ؛ اقتبسوا من الميديين ملابسهم ، ثم أخذوا عنهم أيضاً أنواع الحلى وأدوات الزينة . وكانوا

---

(١) يقول « سترابو » أن الصيف فى مدينة « السوس » حار جدا حتى أن الحيات والأفاعى لا تستطيع أن تعبر الطرق من إحدى ناحيتيه الى الاخرى،لأن حرارة الشمس المتقدة تحرقها وتقضى عليها فى الحال .

(٢) يعتقد الكثيرون أنه عبارة عن أقليم « أران » على نهر الأراك .

يعتبرون الكشف عن شيء من الجسد غير الوجه مما يتنافى مع قواعد الحشمة والأدب، ومن أجل ذلك فقد كانوا يغطون أنفسهم من قمة الرأس، يتوجونها بالعمامة أو القبعة، إلى أخمص القدم يكسونها بالأحذية أو الأخفاف ؛ وكانوا يرتدون سراويل مثلثة الطبقات وقميصاً من الكتان الأبيض ولباساً من طبقتين تمتد أكمامه حتى تخفى السواعد والأيدى، ويعقدون على وسطهم زناراً يشدونه عليها شداً رقيقاً، فكانت هذه الملابس تضمن لهم ما يشاءون من دفء فى الشتاء أو طراوة فى وقت الصيف. أما ملكهم فكان يتميز عن سائر شعبه بارتداء السراويل المطرزة ذات اللون القرمزى والأحذية ذات الأزرار المصفرة فى لون الزعفران. ولم تكن ملابس النساء تختلف عن ملابس الرجال فى شيء إلا فى اشتمالها على فتحة مستطيلة عند الصدر، وكان من عادة الرجال أن يطيلوا ذقونهم وأن يعقصوا شعورهم فى ضفائر مجدولة، ثم استعاضوا عن ذلك فى العصور المتأخرة برؤوس مستعارة من الشعر.

وكان الرجال والنساء فى أسعد أوقات الامبراطورية يكثرون من استعمال أدوات التجميل ومساحيق الزينة ؛ فاستعملوا الزيوت العطرية لتجميل البشرة وتصفيتها من الأوشاب، والأصباغ لصبغ الجفون حتى تبدو الأعين واسعة ناصعة، ونشأت من بينهم طبقة من الناس أسماهم اليونان « كوزمتاى » أى « المزينين » اختصوا بتجميل طبقة النبلاء والأرستقراطية. وكان الفرس بالاضافة إلى ذلك خبراء فى الروائح والعطور حتى راج بين القدماء أنهم اخترعوا بعض مساحيق الزينة والأدهنة، ولم يحدث أن خرج ملكهم قط إلى الحرب دون أن يحمل معه حقيبة زيوته العطرية، يتعطر بها على السواء فى أوقات النجاح والظفر أو فى أوقات الخيبة والفشل.

وقد تداولت فى فارس كثير من اللغات أثناء العصور التاريخية التى مرت عليها، فكان حديث القصر والخاصة فى أيام « دارا الأول » عبارة عن « الفارسية القديمة » وهى لغة قريبة الصلة جداً باللغة « السنسكريتيه » حتى ليبدو لنا فى وضوح أنهما كانتا فى وقت من الأوقات لغتين متقاربتين تشعبتا من لغة واحدة قديمة هى والفارسية القديمة من أبناء عمومة اللغة الانجليزية الحالية (١) . ثم تطورت اللغة الفارسية القديمة وانشعبت إلى شعبتين الأولى منهما « الزند » وهى عبارة عن لغة الـ « زند أفستا » والثانية « البهلوية » وهى عبارة عن لغة هندية أوروبية نشأت منها اللغة الفارسية الحديثة .

ومنذ تعلم الفرس الكتابة استعملوا فى نقوشهم الخط المسمارى البابلى، كما استعملوا فى كتابة وثائقهم الحروف الآرامية . وقد بسّطوا المقاطع البابلية الكثيرة، وأنقصوها من ثلثمائة مقطع إلى سته وثلاثين، ما زالت تتدرج فى تطورها حتى أصبحت حروفا يشتمل عليها هجاؤهم المسمارى .

(١) فيما يلى أمثلة المشابهة بين هذه اللغات

الفارسية القديمة	السنسكريتية	اليونانية	اللاتينية	الألمانية	الانجليزية
pitar	pitar	pater	pater	Vater	father
nama	nama	onoma	nomen	nahme	name
napat	napat	anepsios	nepos	neffe	nephew
bar	bhri	ferein	ferre	führen	bear
matar	matar	meter	mater	mutter	mother
bratar	bhratar	bhrater	frater	bruder	brother
sta	stha	istemi	sot	stehen	stand

وكانت الكتابة لدى الفرس تعتبر من المتع المخنثة التى لا يجدر بالرجل أن يصرف فيها شيئاً من وقته الذى يجب أن يقضيه بأكمله فى الحب والحرب والصيد . ومن أجل ذلك لم يرق للفرس أن يتواضعوا قليلا حتى ينتجوا شيئاً من الآداب العالية الرقيقة .

وكان الرجل العادى أمياً لا يعرف القراءة والكتابة ، وكان يبذل كل جهوده فى الزراعة وغرس الأرض . وقد رفعت « الزند افستا » قدر الزراعة وجعلتها أشرف المهن الانسانية على وجه الاطلاق وأكثرها إرضاء لـ «آهورا مزدا» إلهم الأكبر المتعالى . وكان جزء من الأرض يقوم على زراعته ملاكه الفلاحون ، فتجتمع عائلاتهم أحيانا وتنضوى فى تعاون زراعى يهدف إلى زراعة ما يملكون من أراض واسعة ومساحات كبيرة ؛ وكان جزء آخر من الأرض يمتلكه نبلاء من أصحاب الاقطاعات ، يقوم على زراعته القاطنون به لقاء جزء يدفع اليهم من المحصول، وقد يقوم على زراعته العبيد والأرقاء الذين يجلبون اليه من الخارج[1] ؛ وكانت الثيران تجر المحاريث ذات الأسلحة المعدنية الحادة ، وكانت طرق الرى الصناعية تستعمل فى جلب الماء من الجبال إلى الحقول والمزارع ، وكان الشعير والقمح هما المحصولين الأساسين اللذين يعتمد عليهما السكان فى غذائهم بالاضافة إلى ما يأكلون من لحم كثير وإلى ما يحتسون من شراب وخمور . وأثر عن « قورش » أنه أمر بتوزيع الخمر على عسكره ؛ وأثر عن وزراء الفرس أنهم لا يقومون بأهم المناقشات والأعمال إلا وهم ثملين، حتى إذا أصبح الصباح وزال عن الرؤوس تأثير الكأس والراح ، راجعوا قراراتهم وأنفذوا منها ما يشاءون .

(١) لم يكن بين العبيد أحد من أصل فارسى.

وكان شراب الـ «هوما» المسكر يقدم قربانا للآلهة ، وكانوا يعتقدون أنه يبعث فى شاربيه روح الاستقامة والعفاف على عكس غيره من أنواع الأشربة التى لا تولد فى الأنفس إلا الميل إلى العربدة وسرعة الغضب .

أما الصناعة فكانت قليلة الانتشار فى فارس ؛ لأنها قنعت منذ البداية بأن تدع أمم الشرق الأخرى تمارس كافة الصناعات واكتفت بأن تشترى منها منتجاتها لقاء ما تقتضيه منها من خراج أو جزية . وأبدت فارس كثيراً من ضروب المهارة والعبقرية فى تمهيد الطرق وتحسين المواصلات ووسائل النقل ، فقام المهندسون فى أيام « دارا الأول » ببناء الطرق الواسعة التى تربط بين عواصمه المختلفة ، ومن بين هذه الطرق طريق رئيسى يصل بين « السوس » و «سرديس» بلغ طوله ألف ميل وخمسمائة ميل . وكانوا يضبطون مقاييس الطرق بالفراسخ ويقول هرودوت : « أن كل فرسخ رابع توجد إلى جواره المحطات الملكية وإلى جوارها الفنادق الرائعة » وكانوا يتوخون فى اختيار الطريق أن يسلكوها فى المناطق الآمنة العامرة بالسكان . وكانت تقف لدى كل محطة من المحطات جياد النوبة على أهبة الاستعداد لنقل البريد ، وكانت جياد البريد الملكى تجتاز الطريق ما بين « السوس » و « سرديس » فى نفس الوقت الذى يستغرقه الآن رتل من السيارات ، أى فى أقل من أسبوع واحد ، بينما كان المسافر العادى فى ذلك الوقت يحتاج على الأقل إلى تسعين يوما لاجتيازه .

وكانوا يعبرون الأنهار الواسعة بواسطة القوارب ، ولكن المهندسين كان فى وسعهم متى شاءوا أن يبنوا القناطر والمعابر على نهر الفرات أو عبر البوسفور وأن يجعلوها من المتانة بحيث تعبر عليها مئات الأفيال فى أمن وسلامة تامتين .

وكانت هنالك طرق أخرى تخترق مفاوز أفغانستان إلى بلاد الهند وتجعل من مدينة « السوس » المركز الذى تلتقى عنده الطرق ويجلب إليه الثراء الخرافى الذى اشتهرت به بلاد المشرق . وكانوا ينشئون الطرق أساساً لأغراض حربية وحكومية حتى يتيسر لهم بواسطتها تثبيت الحكم المركزى والادارى ، ولكن هذه الطرق ساعدت ايضاً على تشجيع التجارة وتبادل العادات والأفكار وكذلك المعتقدات والخرافات التى لا يستغنى عنها الجنس البشرى ، وقد انتقلت بواسطتها فعلا فكرة الملائكة والشياطين من الأساطير الفارسية إلى القصص اليهودى والمسيحى .

أما الملاحة فلم تكن قد بلغت من التقدم ما بلغته وسائل النقل البرى ، ولم يكن الفرس يملكون أسطولا خاصاً بل كانوا يستعملون سفن الفينيقيين واليونانيين أو يستولون عليها لأغراضهم الحربية ، وقد حفر « دارا »قناة كبيرة تصل بين فارس والبحر الأبيض مخترقة البحر الأحمر والنيل ولكن خلفاءه اهملوا العناية بها وتركوها طعمة للرمال الذارية المتنقلة . وخرج « اكزرسيس » على رأس جزء من أسطوله يريد أن يطوف حول إفريقيا ولكنه لم يلبث بعد اجتيازه « أعمدة هرقل » أن عاد فاشلا تعلو وجنتيه حمرة الخجل والعار .

وكان الفرس يحتقرون التجارة ويعتبرون السوق مباءة لمختلف الخدع والأكاذيب ، ومن أجل ذلك فقد تركوها للأجانب غالباً فأصبحت فى ايدى البابليين والفينيقيين واليهود ، وكان الأغنياء يفتخرون باستطاعتهم قضاء حوائجهم بما ينبت فى حقولهم أو يوجد فى مخازنهم ، دون أن يضطروا إلى تلويث أصابعهم بعمليات البيع والشراء . اما الأموال وفوائد النسيئة فكانت فى بداية

الأمر تدفع عينا من البضائع وخاصة المواشى والحبوب،ولم يستعملوا النقد إلا فى عصور متأخرة عندما استعاروه من « ليديا » وقد أصدر « دارا » قطعاً من الذهب والفضة عليها صورته تعرف باسم الـ « دريق » (١) وكانت قيمة القطعة الذهبية منها تقوم إلى قيمة القطعة الفضية بنسبة ١٣٫٥ إلى ١ . ومن هنا كانت نشأة النسبة بين هذين المعدنين فى المعاملات النقدية الحديثة .



« قورش » مؤسس الأسرة « الأكينية »

---

(١) هذه الكلمة لاصلة لها باسم « دارا » وهى من كلمة « زريق » الفارسية ومعناها عملة من الذهب وقيمة القطعة الذهبية منها كانت تبلغ خمسة دولارات ، وثلاثة آلاف منها كانت تزن منا فارسيا .

٤

تجارب الحكم والإدارة

الملك ، النبلاء ، الجيش
القانون ، عقوبة وحشية
فوز فى الادارة

قامت حياة فارس على السياسة والحرب أكثر مما قامت على المال والاقتصاد ، ولم يكن عماد ثروتها يقوم على الصناعة ، وإنما كان يقوم على القوة والسلطان ، ومن أجل ذلك كان كيانها شبيها بكيان الجزيرة الحاكمة تعتمد على ما حولها من بحار شاسعة تدين لها بالخضوع والولاء . أما طريقة التنظيم الادارى التى حافظت على هذا البناء فكانت من أحكم الطرق وأبدعها على مر التاريخ . كان الملك يقوم على رأس هذا البناء ويعرف باسم « خشاثرا » أى المحارب (١) وهو لقب يدل على الأصل الحربى وعلى الصفة الحربية فى نشأة « الملكية الفارسية » . وكان جماعة من الملوك الضعفاء يدينون للحاكم الفارسى بالطاعة، ومن أجل ذلك فقد فضل أن يلقب نفسه بلقب « ملك الملوك » ولم يصادف شيئاً من الاحتجاج على دعواه هذه من قطر من أقطار العالم القديم إلا ما كان من اليونان الذين اكتفوا بتسميته باسم « بازليوس » أى الملك . وكانت سلطته نظريا استبدادية، تكفى الكلمة الواحدة تصدر من فمه ليقتل الرجل دون أية محاكمة أو إبداء

---

(١) هذه الكلمة مازالت مستعملة حتى اليوم فى تسمية ملك فارس فهو يعرف باسم « شاه » ونهايتها واضحة فى كلمة « سترب » « Satrap » بمعنى حاكم إقليمى فى فارس وكذلك فى كلمة « كشاتريا » بمعنى الطبقة المحاربة فى بلاد الهند .

ما يبرر ذلك ، وكان للملك أحياناً أن يمنح هذا الحق لأمه أو لكبيرة زوجاته فتقتل من شاءت فى زهو وإسفاف . ولم يكن فى إمكان أحد أن يجرؤ على نقد الملك أو لومه على أى عمل من الأعمال اللهم إلا إذا استثنينا عدداً قليلا جداً من أكبر نبلائه . وكان الرأى العام ضعيفاً غاية الضعف يقهره الحرص والحذر . فاذا قتل الملك طفلا بريئاً أمام أعين أبيه كان على الأب أن يهنىء الملك على إحكامه الرماية وإصابة الهدف ...!! وإذا أمر الملك بجلد جماعة من المذنبين كان عليهم أن يشكروه لأنه يتولاهم بعنايته ولا يحرمهم من رعايته ..!!

وكان من حق الملك أن يملك، كما كان له أن يحكم فعلياً إذا شاء أن يكلف نفسه بعض الجهد والعناء كما فعل « قورش » و « دارا الأول » . ولكن الملوك المتأخرين وكلوا أمر الحكم لجماعة من أتباعهم النبلاء أو من خصيان القصور واكتفوا بقضاء حياتهم فى الحب والنرد والصيد . وكان الخصيان يديرون شئون القصر فيوكل إليهم الاشراف على الحريم وتأديب الأمراء، فاستطاعوا بهذه الميزة التى اختصوا بها أن ينقعوا نقيعاً ساما من الفتن والدسائس فى كل عصر من العصور [١] .

وكان للملك أن يختار ولى عهده من بين أبنائه ، ومع ذلك فقد ظلت وراثة العرش فى أغلب الأحيان عرضة لما تقرره الثورات والفتن .

ولم يكن يحد من سلطة الملك عملياً إلا قوة الطبقة الأرستقراطية التى تتوسط بين الشعب والعرش ، وقد جرت العادة على أن يمنح الملك كثيراً من الحقوق

---

(١) كانت «بابل» تبعث سنويا بخمسمائة من خصيان الفتيان ليقوموا بالخدمة والحراسة فى الحريم الايرانى .

والميزات الاستثنائية لأفراد القبائل الست التى اشتركت مع « دارا الاول » فى تعريض نفسها لمخاطر الثورة ضد « سمرديس الكاذب » فكانوا يستشيرونهم فى جميع الأمور الهامة ذات الخطر . وكان كثير من النبلاء يزورون القصر ويشتغلون بتدبير أمور الملك، وكان الملك يحمد لهم مشورتهم و يوليها كثيراً من عنايتـه . وكان أغلب رجال الطبقة الأرستقراطية يدينون للعرش بالولاء والإخـلاص ، لأن الملك هو الذى يقطعهم الاقطاعات والولايات فى مقابل أن يمدوه بالرجال والمعدات إذا اقتضى الأمر دخوله فى معامع الحرب وحومات القتال ، وكانوا يتمتعون فى إقطاعاتهم بالسلطة التـامة التى تخول لهم جمع الضرائب وسن القوانين و إنفاذ الأحـكام والإشراف على القـوات المسلحة التى تحت إمرتهم .

* * *

وكان العماد الحقيقى للسلطة الملـكية والحكم الامبراطورى قائما على الجيش ، شأنهم فى ذلك شأن سائر الامبراطوريات . تستطيع المحافظة على كيانها مادامت قادرة على المحافظة على قدرتها العالية فى القتل وسفك الدماء ، فأصبح من الواجب على كل ذكر سليم الجسم بين الخامسة عشرة والخمسين من عمره أن ينضم إلى الصفوف و يشترك فى القتال متى أعلنت الحرب فى أى وقت من الأوقات . وقد ذكروا أن أحـد الآباء كان له ثلاثة أبناء فسأل « دارا » أن يعفى واحـداً منهم من الخدمة العسكرية فأمر « دارا » بإعدامهم جميعاً فى التو والساعة . وأرسل والد آخر أربعة من ابنائه إلى ميدان القتال والتمس من « اكزرسيس » إعفاء الخامس وتركه للقيام بأعباء أسرته فصدر الأمر الملكى بشق جسده إلى

نصفين وتعليقهما على ناحيتى الطريق الذى كان على الجيش أن يسلكه . وكان الجند يخرجون إلى القتال فى جلبة الموسيقات الحربية الصاخبة وتهليل الأهلين الذين تخطوا سن الحرب والنزال .

وكان « الحرس الملكى » يقوم على رأس الجيش ، وكان قوامه ألفين من الفرسان والفين من المشاة .. جميعهم من نبلاء القوم وسادتهم ، وقد اختصوا بأمر واحد هو حراسة الملك والمحافظة على سلامته . اما الجيش الأساسى فكان يتكون برمته من « الفرس » و « الميديين » وكانوا ينتخبون من هؤلاء وحدهم الحاميات التى يبعثون بها لصيانة الامن والنظام فى الأنحاء الحربية الهامة من أنحاء الامبراطورية . أما الجيش الكامل فكان يتكون بالاضافه إلى هؤلاء من فرق مختلفة تبعث بها الشعوب الخاضعة ، وكانت كل فرقة من هذه الفرق تختلف عن سائر زميلاتها وتحتفظ بلغتها الخاصة وأسلحتها الخاصة وطرقها الحربية الخاصة ، ومن أجل ذلك فقد أصبح هذا الجيش المختلط مختلف العدة والعتاد والتنظيم وفقا لاختلاف أصله وتكوينه ، فهناك القسى والسهام والسيوف والحراب ، وهناك الخناجر والنصال والمجانيق ، وهناك المدى والدروع والخوذات وألبسة الحديد ، وهناك الخيل المائجة والأفيال الهائجة ، وهناك الرسل والجواسيس والكتاب ، وهناك الخصيان والعاهرات والسرارى ، وهناك المجلات الحربية قد ركبت على دواليبها المناجل الفولاذيه العريضة القاطعة . وكان عدد هذا الجيش كبيرا جدا حتى قيل إنه بلغ فى إحدى حملات « اكزرسيس » ١٫٨٠٠٫٠٠٠ رجل . ومن اجل ذلك انعدمت الوحدة فى صفوفه إنعداما كاملا بحيث كانت تكفى البادرة الأولى من بوادر الفشل لينقلب هذا الجيش الزاخر إلى جموع هائجة

من الغوغاء لايرعون نظاما ولا يأتمرون بأمر ، ولم يكن يساعد هذا الجيش على الغزو إلا كثرة عدده ومقدرته على استيعاب القتلى الذين يسقطون فى ميادين القتال ، فاذا صادفه جيش حسن التنظيم موحد اللغة والقيادة فلا مفر من أن يلقى على أيديه نهايته العاجلة ، كما كان الحال فى الوقعتين المعروفتين « ما راتون » و « بلاطيه » .

* * *

فى مثل هذه الأحوال لم يكن « القانون » إلا ماتمليه إرادة الملك وقوة جيشه . وكل حق يقف فى وجه هذين العنصرين كان حقا مضيعا مغلوبا على أمره ، فأما السابقات والتقاليد التى جرى عليها العمل فلم تكن لتجدى نفعا إلا اذا كان مصدرها أمرا ملكيا خاصا . ومن دواعى الفخر التى تستطيع أن تفخر بها إيران ، أن قوانينها لم تتغير على الاطلاق وأن وعود ملوكها وأوامرهم لم يكن يمكن الرجوع عنها بحال من الأحوال ، لأنهم كانوا يعتقدون أن الملك ملهم يستمد أحكامه من إله الخير « أهورا مزدا » بحيث انبنى على تلك الفكرة أن اعتبروا المشيئة الالهية أساسا لقوانين المملكة ، وأن أية مخالفة لها ماهى فى الحقيقة إلا اثم فى حق الآلهة .

وكان الملك يتولى القضاء فى أعلى مراتبه ، ولكنه كان فى العادة يكل هذه الوظيفة إلى بعض الشيوخ المتفقهين من حاشيته ، فكان يتلوه فى مرتبته القضائيه « محكمة عليا » تتكون من سبعة من القضاه ، يتلوها فى مرتبتها « المحاكم المحليه » الكثيرة التى تنتشر فى أرجاء المملكة . وكان رجال الدين يضعون القوانين اللازمة لهذه المحاكم ، وقد ظلوا فترة طويلة يشتغلون بالقضاء وصياغة القوانين

وتنفيذ الأحكام ، حتى إذا وصلنا إلى العصور المتأخرة وجدنا جماعة من الرجال المدنيين بل ومن النساء المدنيات يجلسون فى كراسى القضاء و يصدرون الأحكام . وكان الإفراج عن المتهم مقبولا فى جميع الحالات ماعدا بعض الحالات الخطيرة النادرة ، وكانت طرق المحاكمة بعد ذلك تجرى على نمط معروف منتظم ؛ وكان للمحكمة فى بعض الأحوال أن تأمر بمنح المكافآت كما تأمر بتوقيع العقوبات ؛ وكان من دأبها عند تقديم أحد المذنبين للمحاكمة أن تقدر ما له من أعمال خيرة وخدمات نافعة سابقة ؛ وقد تغلبوا على التعويقات والتأجيلات القضائية بتحديد موعد أقصى لكل قضية من القضايا ؛ كما كان من عادتهم أن يقترحوا على المتخاصمين أن يختاروا «محكما» يحكم بينهم فيما هم فيه من نزاع حتى ينتهى الأمر بينهم صلحاً . ثم تعقد القانون وكثرت تقاليده فنشأت بسبب ذلك طبقة من الرجال عرفوا باسم « المتفقهين فى القانون » أخذوا على عاتقهم تفسيره للمتخاصمين ومساعدتهم على السير فى قضاياهم . وكان من عادة المتخاصمين أن يقسموا على أنهم على حق فيما يتنازعون فيه، كما كانوا فى أحيان نادرة يفوضون أمرهم إلى الله أن يظهر معجزته فيأخذ المسيء بجريرته ويثيب المحسن على فعلته . وقد حاربوا الرشوة فجعلوا تقديمها أو قبولها من أمهات الجرائم التى يعاقب عليها بالإعدام . وساعد « قمبيز » على رفع مكانة المحاكم عندما أمر رجاله أن يسلخوا قاضياً جائراً وهو على قيد الحياه ، فلما مات أخذوا جلده فحشوه ، وجعلوه مقعداً يجلس عليه ابنه الذى اختاروه ليتولى القضاء فى مكانه ..!!

أما العقوبات الصغيرة فكانت من قبيل الجلد الذى تتراوح عدد ضرباته مابين الخمس والمائتين ، يضربونها بسوط من سياط الخيل ، فاذا سم أحد كلبا

من كلاب الرعاة كان نصيبه مائتى جلدة ؛ فإن قتل إنسانا خطأ كان جزاؤه تسعين واحدة . وكانت موارد القضاء تعتمد جزئياً على ما يجبى من استبدال عقوبة الجلد بالغرامة والاستعاضة عن كل جلدة بست من « الروبيات »

أما الجرائم الكبرى فكان جزاؤها الوسم بالنار أو تمزيق الأوصال أو تقطيع الأعضاء أو سمل الأعين أو الحبس أو الموت . وقد حرم القانون بكافة نصوصه على أى شخص من الأشخاص بما فى ذلك الملك أن يأمر باعدام فرد من الأفراد لجريمة من الجرائم الصغرى، فأما غير ذلك من الجرائم فيمكن صدور الحكم فيها بالاعدام كجريمة الخيانة الوطنية أو هتك العرض أو اللواط أو القتل أو تدنيس النفس أو حرق الموتى أو دفنهم فى جوف الأرض أو التهجم على الملك فى خلوته أو الاتصال باحدى محظياته أو الجلوس مصادفة على عرشه أو الاساءة إلى أحد من أمراء البيت المالك . وكانوا يعدمون المحكوم عليه بتجريعه جرعات من السم، أو دق الأوتاد فى جسده، أو صلبه على الأعواد ؛ أو شنقه وتعليق رأسه إلى أسفل ، أو رجمه بالحجارة ، أو دفنه إلى عنقه حياً، أو سحقه بين حجرين عظيمين ؛ أو خنقه فى رماد ساخن أو قتله بطريقة « الزوارق » التى لا يستطيع العقل الانسانى أن يدرك غلظتها وقسوتها[1] . وقد ورث غزاة الأتراك فى عصور

---

(١) يقول « بلوطارخ » أن الجندى « متردانس » انفلت لسانه أثناء الشراب فأعلن أن الفضل فى قتل « قورش الأصغر » فى موقعة « كوناكسا » إنما يرجع اليه وحده دون الملك ، فأمر « ارتاكزرسيس » الثانى بقتله بواسطة « الزوارق » على النحو الآتى : وهو أن يأخذوا زورقين متماثلين فى البناء والحجم فيضعون هذا المسىء فى واحد منها راقداً على ظهره ثم يغطونه بالزورق الآخر محكمين الغلق على جسده داخل الزورقين تاركين الرأس واليدين والقدمين خارجهما ثم يقدمون له الطعام فاذا رفضه وخزوا عينيه بالابر ليضطروه إلى تناوله ، فاذا أكله أغرقوه بمزيج من اللبن والعسل يصبونه =

متأخرة بعض هذه العقوبات الوحشية وتركوها بدورهم إرثا للأجيال التى أعقبتهم من بنى البشر .

***

وقد استعان الملك بهذه القوانين التى ذكرناها وبجيشه الذى وصفناه على حكم ولاياته العشرين التى كان يدير شئونها وهو مقيم فى واحدة من عواصمه الكثيرة . وكانت « بزارجاده (١) » أهم عواصمه ، وكان أحيانا يقيم فى « پرسبوليس (٢) » ، وكانت « اكباتانا (٣) » مقره فى الصيف . كما كانت من عواصمه مدينة « السوس » عاصمة العيلميين التى تزخر بالسير الحافلة بتاريخ الشرق الأدنى القديم بكامل حلقاته وسائر مقدماته ونهاياته ؛ وكانت تمتاز بصعوبة الوصول إليها ، ولكن بعد الشقة بينها وبين سائر البلدان كان يعتبر من ناحية أخرى من جملة نقائصها ومعايبها ؛ وقد اضطرت « الاسكندر » فى الأزمنة القديمة إلى أن يقطع ألفين من الأميال ليبلغها ويأخذها ، ولكنها أيضاً كانت مضطرة كذلك إلى أن تسير جيوشها مسافة ألف ميل وخمسمائة ميل

= فى فه وعلى سائر وجهه، ويديرونه صوب الشمس دائما حتى تغطيه أسراب الذباب التى تحط عليه ، فاذا أتى فى داخل الزورقين بما يجب أن يأتيه كل من يأكل ويشرب ، وأخذت هذه الفضلات فى التعفن والفساد نشأت من بينها مجموعة من الديدان والهوام تأخذ فى الدخول إلى أحشائه حتى تفنى جسده . فاذا مات رفعوا الزورق الأعلى فوجدوا لحمه قد نهشته هذه الديدان الكبيرة ذات الطنين العجيب التى تسرع فى ذلك الوقت الى الدخول الى جوفه وأحشائه . وقد قاسى « مثرداتس » هذه الميتة الشنعاء سبعة عشر يوما كاملة حتى هلك .

(١) المترجم : هذه المدينة تعرف فى الفارسية باسم « تخت مادر سليمان »

(٢) المترجم : هذه المدينة تعرف فى الفارسية باسم « تخت جمشيد »

(٣) المترجم : هذه المدينة هى المعروفة فى الكتب الاسلامية باسم « همدان »

لتخمد الثورات الناشبة فى « ليديا » وفى « مصر ». وقد ساعدت أمثال هذه الطرق العامة على تمهيد السبيل لليونان والرومان، فتمكنوا من غزو الأنحاء القريبة من آسيا غزوا عملياً، ولكن سكان هذه الأنحاء بدورهم تمكنوا من غزو اليونان والرومان من ناحية أخرى غزواً فقهياً روحياً.

وكانت الامبراطورية مقسمة إلى مقاطعات أو ولايات ليسهل إدارتها وجباية الخراج منها؛ وكان « ملك الملوك » ينيب عنه فى كل ولاية من هذه الولايات اميراً خاضعاً لسلطانه او حاكما يعرف باسم « سترب » يختاره الملك فينصبه حاكما على الولاية مادام حائزاً على رضاه. ولكى يضمن « دارا » ولاء هؤلاء الحكام، كان من عادته ان يرسل قائداً إلى كل ولاية من هذه الولايات يجعل إليه وحده دون الحاكم السيطرة على القوات المسلحة فيها؛ كما كان من دأبه، لكى يثق كل الثقة من ولاء هذين الرئيسين، أن ينصب على كل ولاية « دبيرا » من قبله يجعله مستقلا عنهما ويجعل من وظيفته إرسال التقارير إلى الملك عن مسلكهما وأعمالها. واتخذ الملك بعد ذلك كله إجراءاً تحفظياً أخيراً، فأنشأ ضربا من قلم المخابرات السرية يعرف رجاله بـ « عيون الملك وآذانه »، كان لهم أن يقصدوا فى أى وقت من الأوقات إلى أية ولاية يشاءونها ليفحصوا أمورها وسجلاتها وماليتها. وكان الحاكم يعزل أحيانا دون أن يقدم للمحاكمة، كما كانوا يتخلصون منه أحيانا فى هدوء وسكينة بأن يدسوا له السم على أيدى الخواص من خدمه بناء على أمر يصدر لهم من الملك. وكان الحاكم والدبير يتبعهما جمع من الكتبة يقومون بأعمال الحكومة العاديه التى لا تحتاج إلى شىء من القوة او العنف. وكان هؤلاء يتنقلون من إدارة إلى اخرى، ويبقون فى مناصبهم حتى ولو تغير الملوك؛ لأن الملك يموت ولكن البيروقراطية خالدة لا يدركها الموت او الزوال.

ولم يكن الملك هو الذى يدفع رواتب هؤلاء الموظفين المنتشرين فى أنحاء ولاياته المختلفة، ولكن كان يقوم على دفعها سكان الولاية التى هم فيها، وكانت هذه الرواتب سخية كل السخاء، يستطيع الحاكم بفضلها أن يزود نفسه بالقصور الفخمة والنساء الكثيرات وأماكن الصيد الواسعة التى أسماها الفرس منذ أقدم الأزمنة بـ « جنات الخلد » . وفيما عدا ذلك كان لزاما على كل ولاية أن ترسل إلى الملك سنويا قدرا محدودا من النقود والأموال على سبيل الخراج ، فكانت الهند ترسل ٤٦٨٠ وزنة [١] ، وآشور وبابل ١٠٠٠ وزنة ، و إمارات آسيا الصغرى الأربع ١٧٦٠ وزنة... وهكذا حتى بلغ مجموع مايجبى سنويا من سائر الولايات ١٤،٥٦٠ وزنة يقدرون قيمتها حاليا بمبلغ يتراوح بين ١٦٠،٠٠٠،٠٠٠ – و– ٢١٨،٠٠٠،٠٠٠ دولار . وكان من الواجب على هذه الولايات بالاضافة إلى ذلك كله أن تمد الملك بما يحتاج اليه من سائر اللوازم والحاجيات ، فكانت مصر تمده بقمح يكفى لأطعام ١٢٠،٠٠٠ رجل ؛ وكان الميديون يمدونه بـ ١٠٠،٠٠٠ رأس من الغنم ، وكان الأرمن يمدونه بـ ٣٠ ر ٠٠٠ دجاجة؛ وكان البابليون يبعثون اليه بخمسمائه من الفتيان الخصيان . وانضمت إلى ذلك كله مصادر أخرى للثروة أضيفت إلى مايجبي من خراج ، فتضخم الدخل العمومى تضخما كبيرا بحيث أن « الاسكندر » عندما استولى على العواصم الفارسية وجد فى الخزائن الملكية ١٨٠،٠٠٠ وزنة تبلغ قيمتها الحالية ٢،٧٠٠،٠٠٠،٠٠٠ دولار ، وهذا القدر الطائل من المال هو الذى

---

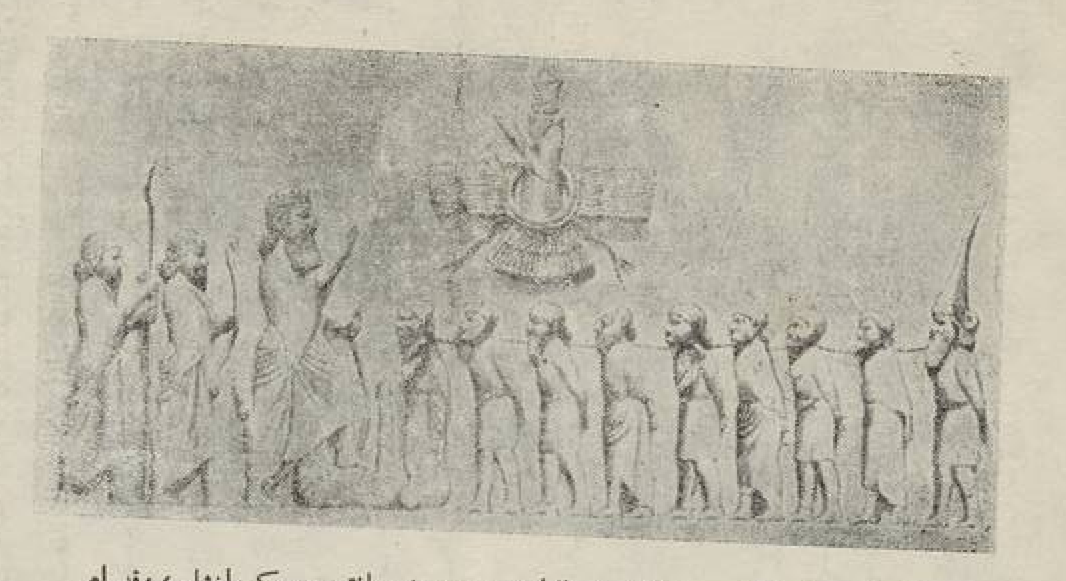
(١) المترجم : قدروا قيمة الوزنه بما يقرب من ٢٣٥ جنيها ، وقالوا ان زنتها تبلغ ستة آلاف درهم .

بقى بعد مائةوخمسين سنة من الاسراف والترف المعروفين عن الفرس، و بعد مئات من الثورات والحروب التى كلفت الدولة الفارسية ثمنا غاليا ، و بعد كل ما حمله « دارا الثالث » معه أثناء هربه مما بلغ على أقل تقدير ثمانية آلاف وزنة .

ومع ذلك فقد ظلت الامبراطورية الفارسية،رغم تكاليفها الباهظة ، أكبر تجربة ناجحة للحكم الامبراطورى فى دائرة البحر الأبيض المتوسط حتى ظهرت بعد ذلك « روما » وورثت كثيرا من أساليبها فى السياسة والادارة. وقد توازنت فيها كفة القسوة والاسراف التى عرف بهما ملوكها المتأخرون وما كان يبدو أحيانا من غلظة فى قوانينها و إبهاظ فى جباية الخراج فيها ، بكفة النظام والأمن اللذين ساعدا الولايات على أن تثرى وتنتعش رغم ما ألقى عليها من أعباء وأثقال .

كذلك ظفرت الشعوب الخاضعةلها بمدىواسع من الحرية لانكاد نصادف مثله إلا فى أكثر الامبراطوريات رقيا وثقافة وعقلية ، فقد سمح لكل أقليم أن يستبقى لغته الخاصة وقوانينه وعاداته وأخلاقه وديانته وعملته ، بل لقد استطاع فى بعض الأحيان أن يحتفظ بالأسرة الحاكمة فيه . وكانت كثرةمن الشعوب الخاضعة للامبراطورية الفارسية كأهل بابل وفينيقيا وفلسطين راضين كل الرضا بحالهم ويرون أن هذا النظام الامبراطورى دون غيره هو الذى منع قادتهم وجباة الضرائب من استغلالهم و إرهاقهم .

وقد بلغت الامبراطورية الفارسية على عهد « دارا الأول » شأوا عظيما جعلها عنوانا للتنظيم السياسى الناجح الذى لم يكن له مثيل فى الامبراطورية الرومانية إلا على عهد أباطرة قليلين مثل «تراجان» و «هادريان» و « انطونيو»



« آهورا مزدا » كما صوروه على الصخرة العاتيه « بهستون » بالقرب من كرمانشاه ، وقد امر « دارا » بنحت هذه النقوش فى قمة الجبل تخليداً لتوليه العرش سنه ٥١٦ ق. م ويرى فى نهاية الطرف الايمن من هذه الصورة جندى من « السيذيين »

٥

زردشت

بعثة النبي ، الدين الفارسي قبل زردشت
كتاب الفرس المقدس ، اهورا مزدا
آلهة الخير والشر وكفاحهم للسيطرة على العالم

تحدثنا الأساطير الفارسية أن نبيا عظيما ظهر قبل مولد المسيح بمئات من السنين فى « حظيرة الآريين » المعروفة باسم « آيريانا ڤيجو » ، وقد أسماه قومه باسم « زَرَتُشْتْرَا » ولكن اليونان اقتصروا على تسميته باسم « زُرُوَاستِرِ » لأنهم لم يستطيعوا أن يتحملوا هذا الاملاء الطويل الذى وردت به اللفظة فى لغة « البرابرة » من الفرس . وكانت الفكرة التى أوحت به إلهية محضة ، جعلت ملاكه الحارس يتسرب إلى نبات إسمه « الهوما» فيختلط بعصارته ، وينفذ بعد ذلك إلى جسد رجل من رجال الدين كان يقوم بتقديم الصدقات والقرابين . فانبعث أثناء ذلك شعاع من أشعة « العظمة الالهية » ونفذ إلى صدر فتاة عريقة المحتد كريمة الأرومة تزوج بها رجل الدين هذا ، فاقترن بزواجهما الملاك الحبيس فى صدر الرجل بالشعاع الحبيس فى صدر الفتاة ، ونتج عن اقترانهما « زَرَتُشْتْرَا » وقد أخذ يقهقه عاليا فى اول يوم ولد فيه ، حتى فرت من حوله فى خوف وذعر تلك الأرواح الشريرة العابثة التى تجتمع عادة حول كل ولادة حديثة . وقد امتاز هذا المولود بحب عميق للحكمة والحق ، فاختار حياة العزلة والاعتكاف واتخذ جبلا موحشا عاش فيه يقتات بالجبن وما تخرج الأرض من ثمر . وقد حاول « الشيطان » أن يغريه ولكنه أخفق فى جميع محاولاته ، وشق صدره بالسيف وملأ جوفه بالفضة المصهورة

ولكنه لم يتأوه بالشكوى ، ولم يتزحزح عن عقيدته فى « آهورا مزدا » إله النور وإله الآلهة وإلاه الأعلى القدير. وظهر له « اهورا مزدا » ووضع فى يديه « الأفستا [١] » كتاب المعرفة والحكمة ، وأمره أن ينشر التعاليم التى جاءت فيه بين سائر الناس ، فلما فعل ذلك ظل فترة طويلة والناس يتهكمون به ، ويصيبونه بكثير من السخط والأذى والبلاء ، حتى استمع له فى النهاية فى إعجاب وسرور أمير إيرانى كبير اسمه «فشتاسبا»[٢] أخذ على عاتقه أن ينشر تعاليمه بين رعاياه . وبهذه الطريقة ولد الدين « الزردشتى » . . وقد قدر لصاحبه « زرتشترا » أن يعيش حتى يبلغ أرذل العمر ، ثم أدركته الوفاة فى ومضة من ومضات البرق رفعته إلى مدارج السماء .

ولسنا نستطيع الآن أن نحقق مدى ما ورد فى هذه الرواية من صواب ، ولكن اليونان على كل حال قبلوا أن يعتبروه شخصية حقيقية تاريخية ، وزادوه شرفا بأن نسبوه إلى زمن قديم يسبق زمانهم بـ ٥٠٠٠ سنة ، وقد نسبه « بيروسوس البابلى » إلى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، ولكن المؤرخين المحدثين الذين يعتقدون فى صحة وجوده تاريخياً لا ينسبونه إلا إلى فترة متأخرة عن ذلك ، تقع بين القرنين العاشر والسادس قبل الميلاد[٣] .

وكان الميديون والفرس الأسبقون يعبدون قبل ظهوره الحيوانات والأجداد

---

(١) المترجم : يكتب هذا الاسم فى الكتب الاسلامية « أوستا » أو « الابستاق »

(٢) المترجم : يكتب هذا الاسم فى الكتب الاسلامية هكذا : « بشتاسب » أو « كشتاسب » .

(٣) اذا صح أن « فشتاسبا » الذى قام بنشر تعاليم « زردشت » هو والد « دارا الاول » فان أقرب التواريخ احتمالا هو التاريخ الاخير على ما يظهر .

والأرض والشمس عبادةً تصدر عن دين وثيق الصلة (فيما اشتمل عليه من آلهة وتعاليم) بدين « الهندوس » فى العصر الـ « فيدى » . وكان أهم الآلهة فى العصر السابق لظهور « زدرشت » هو « مترا » إله الشمس و « أناهيتا » إلهة الخصوبة والأرض و « هاأوما » الثور المقدس الذى أشفى على الموت ثم انبعث حياً وسقى البشر دماءه ليكسبهم البقاء والخلود ؛ وقد ظل الايرانيون السابقون يعبدونه ، و يتناولون من أجله عصيراً مسكراً يستخرجونه من عشب « الهوما » الذى يكثر على سفوح الجبال فى بلادهم . وقد استاء « زردشت » أشد الاستياء عندما وجد قومه يعتقدون فى هذه الآلهة البدائية وهذه المراسم الخرافية، فثار ضد « المجوس » أو الكهنة الذين كانوا يقومون بالصلاة لها وتقديم القرابين اليها، وأعلن للعالم فى شجاعة منقطعة النظير أنه لا يوجد إلا إله واحد هو « آهورا مزدا » إله « النور والسماء » ،وأن ما عداه من آلهة ما هى فى الحقيقة إلا مظاهر من صفاته . وربما أحس « دارا الأول » عندما اعتنق هذا الدين أنه دين قمين بأن يوحى بعناصر الخير فى نفوس شعبه ، و يبذر القسوة فى شعاب حكومته ؛ فأخذ على عاتقه منذ تولى العرش أن يحارب المذاهب القديمة الأخرى وكهنة المجوس الأقدمين وأن يجعل « الزردشتية » وحدها المذهب الرسمى للدولة .

***

والكتاب المقدس الذى جاء به هذا الدين الجديد هو فى الحقيقة عبارة عن مجموعة من الكتب استوعبت ماجمعه تلاميذ هذا النبي من أقوال وصلوات ؛ وقد أسماها بعض اتباعه المتأخرين « الافستا » . واشتبه الأمر على بعض العلماء

المحققين فسموها خطأ بالـ « زندافستا » وأصبحت لذلك تعرف لدى الغربيين بهذه التسمية الخاطئة[١]. وقارىء هذه الكتب من غير الفرس، يروعه أن يجد أن الأجزاء الأساسية التي بقيت منها (وهي في مجموعها أقل مما جاء في الانجيل) هي في الحقيقة جزء صغير جداً بالقياس إلى ما أنزله الله على « زردشت » [٢]

---

(١) « أنكيتيل ديبرون » المتوفى سنة ١٧٧١ . هو المستشرق الذي أضاف كلمة « زند » وهذه الكلمة يستعملها الفرس للدلالة على ترجمة الـ « أفستا » أو تفسيرها وشرحها، أما كلمة « الأفستا » فكلمة مجهولة الاصل وربما كانت مشتقة مثل كلمة « ڤيدا » من الاصل الارى « ڤيد » بمعنى عرف .

(٢) تروى الاخبار الفارسية أن « الافستا » تحتوى على واحد وعشرين كتابا كل منها اسمه « نسك » وهذه الكتب جميعها لا تشتمل الا على جزء قليل من نصوصها الاصلية وقد بقى كتاب منها برمته هو الـ « ونديداد » اما الكتب الاخرى فتوجد منها اجزاء مشتتة توجد في ثنايا تأليفات متأخرة كالـ « دينكرت » والـ « بندهش » . ويذكر مؤرخو العرب أن الـ « افستا » برمتها كانت مكتوبة في ١٢,٠٠٠ رقيقة من جلود البقر .

ومن الروايات الدينية الذائعة الصيت أن الامير « ڤشتاسب » أمر بنسخ « الافستا » في نسختين ، أحرق الاسكندر احداها عندما أحرق القصر الملكي في « برسبوليس » وأما النسخة الأخرى فحملها اليونانيون المنتصرون إلى بلادهم ثم ترجموها واستمدوا منها — كما يقول الفرس — كل ما أثر عن اليونان من علم ومعرفة . ولما كان القرن الثالث الميلادى أمر ملك من ملوك البارثيين ومن الاسرة الاشكانية اسمه « ارافولوجيسوس » أن يجمعوا المقطوعات المتفرقة من « الافستا » سواء كانت مدونة أو متناقلة بين أتباع هذا الدين ، فأصبحت هذه المجموعة عبارة عن الكتاب المقدس للزردشتيين في القرن الرابع الميلادى وقام عليها الدين الرسمي للدولة الفارسية . وقد أصيبت هذه المجموعة بشيء من الاذى فيما بعد، عندما غزا المسلمون فارس في القرن السابع الهجرى

والأجزاء الباقية من الـ « افستا » يمكن تقسيمها الى خمسة أقسام :

الاول — الـ « يسنا » وهو عبارة عن خمسة وأربعين فصلا من الطقوس الدينية يرتلها كهنة الزردشتيين ، وسبعة وعشرين أخرى تسمى الـ « كاتها » صياغتها موزونة فيما يظهر وتشتمل على أحاديث « زردشت » وما أنزل إليه .

الثاني ـ الـ « ويسبرد » وهو عبارة عن أربعة وعشرين فصلا من الطقوس الدينية =

ويبدو لمن يمعن النظر فيها ، سواء من الأجانب أو من الفرس ، أن هذه الأجزاء الباقية هى فى الحقيقة عبارة عن مجموعة مضطربة من الأدعية والصلوات والأغانى والأساطير والوصفات والمراسم وقواعد الأخلاق ، ليس فيها أى جمال فنى إلا ما يعترضها أحيانا من ألفاظ مختارة أو ما يبدو فى صياغتها من تحمس فى الاخلاص أو ترفع فى الآداب أو تعفف فى الترتيل والانشاد . وهى فى مجموعها شبيهة بالتوراة من حيث كونها مجموعة من التواليف الدينية الممتازة ، إذا سلكها الباحث تكشفت له أسماء الآلهة ودلالات الأفكار موزعة فى أنحائها المختلفة ، ولقد يعثر أحيانا على نفس الكلمات والتعبيرات المستعملة فى الـ « رج - ڤيدا » . حتى لقد ذهب بعض المشتغلين بالعلوم الهندية إلى أن الـ « افستا » لم تصدر فى الواقع عن « آهورا مزدا » انما نزلت بها كتب الهنود المقدسة المعروفة بالـ « ڤيدا » . وربما صادف القارىء أحياناً مقطوعات مشتقة من أصل بابلى قديم كنشأة الخليقة على ست دفعات ، مبتدئة بالسموات ثم المياه ثم الأرض ثم النبات ثم الحيوان ثم الانسان ، وكنشأة البشر من أبوين اثنين ، وكتصوير الجنة بصورة أرضية ، وكغضب الخالق على خليقته وتصميمه على إهلاكهم جميعا بالطوفان فيما عدا فئة قليلة استثناها من مخلوقاته .

= الثالث - الـ « ونديداد » وهو عبارة عن اثنين وعشرين فصلا يعرف كل منها بالـ « فرجرد » وهى تستوعب فقه الزردشتيين وتشريعاتهم الأخلاقيه ويتخذها « البارسيون » فى الهند أصلا لقانونهم الكنسى فى الوقت الحاضر

الرابع - الـ « يشت » وهى مجموعة من الاغاني والمدائح الموجهة للملائكة ، وهى تبلغ اثنتين وعشرين أغنيه ، تختلط فيها الاساطير بالنبوءة عن نهاية العالم .

الخامس - الـ « خرد أفستا » أو الـ « أفستا الصغيرة » وهى مجموعة من الصلوات لمختلف المناسبات .

ومع ذلك كله فالعناصر الايرانية الأصيلة الباقية فى هـذه الـكتب تكفى للدلالة على طابعها العام ، فالعـالم فيها تسوده فكرة الثنائية ، وهو مسرح لنزاع دائم يستمر إثنتى عشرة الف سنة ، هى فترة النزاع بين « آهـورامزدا » إله الخير و « أهرمن » إله الشر ، ولـكن الطهر والأمانة ، وهما أكبر الفضائل ينتهيان بالعالم إلى الأبدية والخلود ؛ فأما الموتى فلا يجب دفنهم أو حرقهم كما يفعل السفهاء من اليونان والهنود ؛ بل يجب أن تطرح جثثهم للـكلاب لتنهشها أو للطيور لتقتات بها .

و إله « زردشت » عبارة عن مجموعة السموات والأفلاك . و « آهورامزدا » فى رأيه يكتسى بقبة السماء الزرقاء ، وجسده هو النور والعظمة الملـكية ، والشمس والقمر هما عيناه وناظراه . فلما تقدمت العصور وانتقلت أمور الدين من أيدى الرسل والأنبياء إلى أيدى القادة والساسة ، صوروا هذا الاله بصورة ملك جبار مهيب الجانب ، قوى السلطان ، يعينه على الخليقة والحكم مجموعة من الآلهة الصغيرة جعلوها فى البداية صوراً من صور الطبيعة وقواها كالنار والماء والشمس والقمر والرياح والمطر . ومع ذلك فقد ظل أكبر فخر لـ « زردشت » أنه صور إلهه بصورة الاله المسيطر على ماعـداه من الـكائنات ، فجاءت فى كتابه عبارات جميلة لاتقل فى روعتها وشدة أسرها عما جاء فى كتاب « يعقوب » ، فهو يقول :

« هاأنذا أسألك فحدثنى بصحة الخبر ... يا آهورا مزدا .. !! من الذى »
« جعل للشمس والكواكب مستقرا تسرى فيه ..؟ ومن الذى جعل القمر يكبر »
« ويصغر ..؟ ومن الذى يحمل الارض والسموات من أسفلها فلا يدعها تنهار »
« وتهوى .. ؟ ومن الذى يقوم بالمحافظه على المياه والنبات .. ؟ ومن الذى »
« سخر الرياح الذاريه والسحب الساريه ؟ ومن الذى أبدع يا آهورامزدا .. »
« العقل الخير ... ؟ ؟ »

وهم لا يقصدون بالعقل الخير العقل الانسانى ، وإنما يقصدون به « الحكمة الالهية » التى جعلها « آهورا مزدا » واسطة فى إبداع الخليقة (١) . وقد وصف « زردشت » إلهه « آهورا مزدا » فألحق به سبع صفات هى :

« النور » و « العقل الخيرّ » و « الحق » و « الجبروت » و « القداسة » و « الاحسان » و « الخلود » .

ولكن أتباعه - وقد اعتادوا من قبل عبادة الآلهة المتعددين - مثلوا هذه الصفات فى صورة كائنات أسموها « أميشا سبنتا » أى الكائنات الخالدة المقدسة ، وجعلوها تأتمر بأمر « آهورا مزدا » فتخلق العالم وتسيطر على تنظيمه وحكمه ؛ وبذلك تحول مذهب التوحيد الذى جاء به مؤسس هذا الدين إلى فكرة التعدد التى اعتنقها أتباعه ، وهذا شبيه بما حدث للمسيحية أيضاً . وأضاف الفقه الفارسى إلى هذه المجموعة من الكائنات مجموعة أخرى من « الملائكة الحارسين» يتولون رعاية كل رجل وامرأة وطفل ؛ ويعتقد الفارسى المتدين ، متأثراً فى ذلك بما جاء فى ديانة البابليين عن الشياطين ، بأنه فى مقابل هذه الكائنات المقدسة والملائكة الأطهار الذين يعينونه على الخير ، يوجد سبعة من الشياطين أو الأرواح الشريرة ، تديم التحليق فى الهواء وتسعى جاهدة إلى إغراء البشر بارتكاب الآثام والشرور ؛ ومن أجل ذلك فهى فى حرب دائمة مع « آهورا مزدا » وكل مظهر من مظاهر الحق والخير . ورئيس هؤلاء الشياطين

---

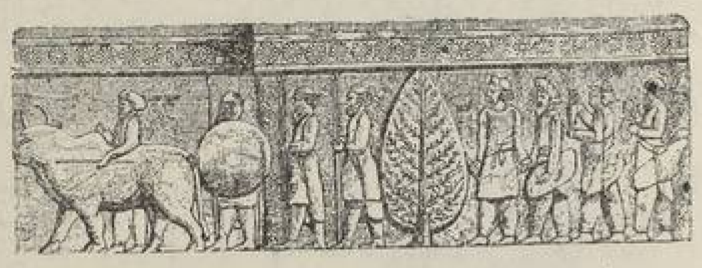
(١) يعتقد « دار مستتر » أن فكرة « العقل الخير » شبيهة بما اعتقده « الادريين » و « فيلو » عن فكرة « الكلمة الالهيه » وهو يتخذ ذلك حجة على أن الـ « يسنا » يرجع تاريخها إلى القرن الاول قبل الميلاد

هو « آنجرو ماينيوس » أو « اهرمن » أمير الظلمة وحاكم العالم السفلى ؛ وهو شبيه بأبليس فى ديانة اليهود ، وقد أخذوا فكرته فيما يظهر من فارس ثم أهدوها بدورهم الى المسيحية . و « أهرمن » هو الذى خلق الثعابين والديدان والجراد والنمل والشتاء والظلمة والمعاصى والآثام واللواط والطمث وما شابه ذلك من بلايا الحياة وآفاتها ، وقد أبدعها جميعاً لتكون سبباً فى تحطيم الجنة التى أسكنها « آهورا مزدا » للسلف الأول من الجنس البشرى .

ويبدو لى أن « زردشت » كان يعتبر هذه الأرواح الشريرة آلهة زائفة ، هى فى الحقيقة تجسيد خرافى للقوى المعنوية التى تقف فى سبيل تقدم الانسان ورقيه ، فأما أتباعه فقد اتبعوا طريقاً أيسر فى التفكير فظنوها كائنات حية ، جسدوها فى كثرة بالغة بحيث اشتمل علم اللاهوت الفارسى فيما بعد على ملايين من هذه الشياطين الشريرة .

والمذهب الذى جاء به « زردشت » قريب المشابهة جداً بمذهب التوحيد ؛ وقد أدخلوا عليه فكرة « أهرمن » و « الأرواح الشريرة » ولكنه ظل مذهباً لا يعترف إلا بإله واحد ، كما يفترض فى المسيحية رغم اشتمالها أيضاً على فكرة إبليس والملائكة والشياطين . وفى الواقع إننا نجد فى المسيحية الأولى أصداء كثيرة لفكرة الثنائية الفارسية والتعاليم الدينية اليهودية والفلسفة اليونانية ؛ وفى الواقع أيضاً أن فكرة « الله » عند الزردشتيين قد استطاعت أن تعجب رجلا مثل « ماتيو آرنولد » ...لأن « آهورامزدا » كما يبدو فيها، هو مجموعة القوى التى تعمل للخير والحق فى هذا العالم ؛ وفى الاستعانة بهذه القوى ظفر مؤكد لنشر الفضيلة والأخلاق ؛ كما أن فى فكرة « الثنائية » تبرير لهذا

التعارض الذى يجعل الأشياء على طرفى نقيض، وهو مالم تستطع « فكرة التوحيد » أن تلتمس له مخرجا على الاطلاق . ولقد يذهب بعض رجال الدين الزردشتيين أحيانا مذهب متصوفة الهنود أو فلاسفة القرون الوسطى فيرون أن الشر لا وجود له فى الواقع ونفس الأمر ؛ ولكن هذا لا يمنع من أن علم اللاهوت الذى قدموه لأتباعهم جاء مناسباً تمام المناسبة لتمثيل وقائع الحياة ومعانيها تمثيلا يقبله العقل البشرى العادى ؛ وقد جعلوا الفصل الأخير من هذه الرواية عهداً قطعوه على أنفسهم بأن نهاية الرجل الخير ستكون خيرة سعيدة ؛ فاذا انتهت أربع فترات طول كل منها ثلاثة آلاف سنة ، وتناوب الغلبة فيها « آهورمزدا » و« أهرمن » فان النهاية ستكون بسحق الشر واستئصاله ، ونصرة الخير واعلائه ، واختفاء القوى الشريرة إلى يوم الدين وأبد الآبدين ؛ وعند ذلك يتمكن الرجال الخيرون من اللحاق بـ « آهورا مزدا » فى جنة الخلد ، فأما أهل الشر والسوء فيسقطون فى فجوة عميقة من الظلام ، يكون طعامهم فيها السم الزعاف على الدوام .



جماعة من وفود الشعوب الخاضعة تجلب الجزية إلى ملوك فارس

٦

فلسفة الأخلاق لدى الزردشتيين

الانسان هو ميدان المعركة
النار التي لا تخمد
الجحيم والأعراف والجنة
عبادة « مثرا »
المجوس والبارسيون

صور الزرادشة عالمنا الذى نعيش فيه بأنه مسرح للكفاح بين الخير والشر، فأقاموا بذلك فى خيال الشعب قوة خارقة تحض على الأخلاق والعفة والطهر؛ وجعلوا النفس البشريه شبيهة بالكون، فمثلوها بميدان تتعارك فيه الأرواح الخيرة والأرواح الشريرة، وبذلك أضحى كل إنسان — سواء شاء أو لم يشأ — جنديا من جنود الرحمن الرحيم أو جنديا من جنود الشيطان الرجيم، وأضحى كل عمل إيجابي أو سلبي يصدر عنه يعتبر مما يرجح كفة إله الخير « آهورا مزدا » أو كفة إله الشر « أهرمن » . . وهذ المبدأ الأخلاقى، الذى جعل حتما على البشر أن يستعينوا فى تقرير أخلاقهم بمجموعة من القوى الخارقة للعادة، هو فى الحقيقة مبدأ يدعو إلى الاعجاب الشديد الذى يفوق حد الاعجاب بالفقه الذى أملاه؛ فقد أضفى على الحياة البشرية العادية رداء من الروعة والجلال يفوق فى بهجته وشدة أسره كل رداء يجوز أن يكون نتاجاً للفكرة السائدة التى تجعل من الانسان « حشرة حقيره » كما كانوا يصفونه فى القرون الوسطى ، أو آلة ميكانيكية

تتحرك من تلقاء نفسها كما يعبرون عنه اليوم فى الاصطلاح الحديث . فلم يكن البشر فى رأى « زردشت » مجرد بيادق تتزاحم عفوا فى رقعة الكون وحربه الدائرة ، بل هم فى الحقيقة كائنات حرة الارادة ، لأن « آهورا مزدا » شاء أن ينمى شخصياتهم ، فجعل لهم أن يختاروا فى حرية تامة بين النور والحق وبين الظلام والكذب ، وهداهم إلى أن « أهرمن » هو « الكذب الخالد » وكل كاذب يعتبر واحداً من أتباعه وخدامه .

وقد نتج عن هذه الفكرة العامة مجموعة مفصلة من القواعد الأخلاقية بسيطة للغاية، لأنها تدور حول القاعدة الذهبية التى تقول : « أن الطبيعة الخيرة هى تلك التى تملى على صاحبها ألا يصنع بغيره أمراً لا يريده لنفسه[1] » وتقول الـ « أفستا » أن واجب الانسان ينطوى على ثلاثة أمور هى « أن يسعى إلى جعل العدو صديقا ، وجعل الشرير صالحا ، وجعل الجاهل عالما » فأما أكبر الفضائل فالصلاح ، ثم الشرف والأمانة فى الأقوال والأفعال . وتطبيقاً لهذا المبدأ الأخير ، لم يكن الفرس مثلا يتقاضون شيئاً من الفائدة على عاريات الأموال ولكنهم كانوا ينظرون اليها نظرهم إلى الشيء المقدس الذى لايجوز المساس به أو التصرف فيه . والكفر عندهم هو أكبر الآثام فى الديانة « الأفستيه » كما هو الحال فى الديانة « الموسوية » ؛ ولقد نستطيع أن نستدل على وجود « الالحاد » بين الفرس من هذه العقوبات الشديدة التى اختصوه بها ؛ فكان جزاء المارق والكافر الاعدام السريع ، لأن المغفرة والرحمة التى أمر بهما الرحمن لم تكونا

---

(١) ينص الفصل ٤٦ من الـ « يسنا » على أن « الشرير هو الذى يحسن إلى الاشرار » ومن الملاحظ ان الكتب الموحى بها قلما تتفق فى نصوصها وتعابيرها .

من نصيب « الكفرة » والمارقين . وقد وردت كلمة « الكفرة » فى بعض النصوص مرادفة لكلمة « الأجانب ». وعرفوا « الأجنبى » بأنه نوع منحط من الفصيلة البشرية ، لم يهده « آهورا مزدا » إلى اتباع الخير، بل ملأ قلبه بحب وطنه، فلم يعد يفكر إلا فيه وسعى دائما إلى غزو فارس . ويقول هيرودوت : « إن الفرس يرون أنفسهم أسمى الشعوب شأنا وأعلاها كعبا فى سائر الأمور والشئون ، وهم يعتقدون اعتقاداً جازما أن الأمم الأخرى تدنو منهم فضلا ، باعتبار موقعها الجغرافى قرباً أو بعداً من « فارس » ، وان أسوأ الأمم والشعوب هى أبعدها عن الحدود الفارسية . وقد بقيت أصداء هذه الأقوال حتى اليوم ومازالوا يطبقونها تطبيقاً عاما شاملا.

ولما كان الصلاح هو أكبر الفضائل وأسماها عند الفرس، فان أول واجب على الانسان فى الحياة هو التقرب إلى الله وعبادته بطريق التطهر والتضحية والصلاة . ولم تجز الديانة الزردشتية إقامة الهياكل والأصنام ، ولكن اتباعها مع ذلك أخذوا يقيمون معابدهم المقدسة على سفوح التلال أو فى ساحات القصور أو فى أواسط المدن ، واشعلوا فيها النيران المقدسة قربانا للاله « آهورا مزدا » أو لغيره من الآلهة الصغيرة ، ثم عبدوا هذه النيران نفسها واعتبروها من آلهتهم وأسموها « آتَر » وجعلوها ابنا لالههم الأعظم إله النور والضياء ، وأصبح من عادة كل أسرة أن تجتمع حول موقد النار فى خشوع واحترام ، ثم تطور الأمر فأصبح من أهم مراسم الدين أن يحرص أعضاء الأسرة الواحدة على إبقاء هذه النار فى اشتعال دائم، وألا يدعوها تخمد فى لحظة من اللحظات . فأما نار السموات التى لا تخبو وهى « الشمس » فقد عبدوها على أنها أبلغ تمثيل وأقوى تجسيد

لفكرة « آهورا مزدا » أو « مثرا » . وهذا شبيه بما فعله « أخناتون » تماما من حيث عبادة الشمس فى مصر . ويقول كتاب الفرس المقدس : « إن شمس الصباح يجب أن تبجل حتى وقت الظهيرة ؛ وشمس الظهيرة يجب أن تبجل حتى وقت العصر ؛ وشمس العصر حتى وقت المساء ؛ فاذا لم يبجل الناس الشمس فان الأعمال الخيرة التى يأتونها طيلة النهار لا تحسب فى حساب حسناتهم » ... وكانوا يقدمون للشمس والنار و« آهورامزدا » قرابين من الزهر او الخبز أو الفاكهة أوالطيب أو الثيران أو الأغنام أو الابل أو الخيل أو الحمير أو الغزلان ؛ كما كانوا يقدمون أحيانا قرابين من البشر ؛ وهذا كله شبيه بما كان عليه الحال فى أجزاء أخرى من الأرض . وكانوا يعتقدون أن الآلهة تتلقى خلاصة هذه الأشياء دون سائر أجزائها المأكولة ، فان هذه الأجزاء المادية كانت من نصيب الكهنة والمتعبدين وحدهم ، وقد عبر كاهن المجوس عن ذلك بقوله : إن الآلهة لا تريد من الأضحية إلا الروح التى اشتملت عليها .

أما العادة الآرية القديمة التى جروا فيها على تقديم شراب الـ « هوما » المسكر إلى الآلهة فقد ظلت متبعة فى الديانة الزردشتية ، ولو أن « زردشت » نفسه كان يكرهها كرها شديدا ، بحيث لم يرد لها ذكر على الاطلاق فى نصوص كتابه الـ « أفستا » . وكان على الكاهن أن يشرب جزءا معلوما من هذا المصير المقدس وأن يقسم الباقى على الحاضرين من المؤمنين أثناء تأدية الطقوس الدينيه ، فاذا كان الناس من الفقر بحيث لا يستطيعون تقديم مثل هذه القرابين الشهية الغاليه فلا بأس عليهم من أن يتقربوا إلى إلهم بالزلفى والاغراق فى الضراعة والابتهال . والظاهر أن « آهورا مزدا » كان شبيها بإله اليهود يحب المدائح

ويستسيغ الأدعية ، ومن أجل ذلك فقد كشف للصالحين عن قائمة مستفيضة من صفاته، أصبحت وردا على ألسنة الفرس فى دعواتهم وابتهالاتهم .

فاذا قدرت للفارسى حياة الحق والصلاح فله أن يقابل الموت غير خائف ولا وجل ، وقد كان هذا المطلب من أهم الأهداف الخافية التى يهدف إليها الدين . وكان فى وسع إله الموت « استيفيهاد » أن يظفر بكل إنسان مهما كان مقره ومكانه ، لأنه باحث دائب ليس له غالب ، ولا يستطيع كائن أن يفلت من قبضته ومخالبه ، وقديما لم يستطع أن ينجو منه من لاذ بالهرب إلى أسفل سافلين ، كما فعل « أفراسياب » التركى حينما استغلّ السحر والقوة فبنى لنفسه قصرا من حديد تحت سطح الأرض على عمق الف قامة من قامات الرجال ، ودعمه بمئات الأعمدة الهائلة ، وأنشأ فى سقفه النجوم والكواكب ، وأدار فيه القمر والشمس ، وملأه بأشعة النهار البينة الساطعة ، ونال فيه من المتع ماشاء ، وعاش فيه عيشة كلها سعادة وهناء ... ! !

ولم يستطع أن ينجو منه من جاب مسالك الأرض الفسيحة الواسعة وبلغ حدودها النائية الشاسعة ، كما فعل « الضحاك » حينما خرج من المشارق إلى المغارب باحثاً عن الخلود ، فلم يظفر بطائل ولم يفز بنجح .

و « أستيفيهاد » يقبل على كل شخص من الناس فى خداع وخفاء ، فلا يقبل منهم ثناء ولا اطراء ، ولا يقبل منهم رشوة ولا عطاء ، وكل همه أن يهلك الناس فى قسوة وجفاء ، دون أن يرعى لأحد منهم حرمه ولا ولاء . . !!

والمعروف عن كل الأديان أنها بطبيعتها تشتمل على جملة من مبادىء الوعيد والارهاب ، تقابلها جملة أخرى من مبادىء البر والمواساة ؛ وعلى ذلك فلم يكن

الفارسى العادى يقابل الموت غير آبه إلا إذا أحس بأنه كان من جنود « آهورا مزدا » المخلصين ، لأنه كان يعتقد أن العالم الخافى تقع فيه « النار » و « الأعراف » و « الجنة » ، وعلى أرواح الموتى أن تعبر جميعها فوق جسر كالغربال هو الصراط المستقيم ، فأما الروح الخيرة فمصيرها إلى مسكن الأغانى والأهازيج « حيث تستقبلها فتاة عذراء ذات وجه كله فتنة وحياء ، وصدر ناهد الثدى مكتمل النماء ، ثم تعيش بعد ذلك مع « آهورا مزدا » حتى أبد الآبدين فى هناء دائم وصفاء مقيم ؛ وأما الروح الشريرة فلا تستطيع أن تعبر هذا الجسر بل تتردى فى هوة سحيقة من النار ، يتناسب عمقها مع مدى الخبث والاثم اللذين اتصفت بهما هذه الروح ؛ وهذه النار لم تكن مجرد « الجحيم » الذى حدثتنا عنه الأديان الأخرى عندما قالت إن جميع الارواح تهبط اليه فى البداية سواء كانت خيرة أم شريرة ، بل هى هوة سحيقة من الظلام والرعب ، تتردى فيها الأرواح الشريرة لتنال ماقدر عليها من عذاب إلى نهاية العالم . فاذا كانت حسنات الانسان ترجح سيئاته فعليه أن يتطهر بعقوبة مؤقتة ، فاذا كثرت آثامه وكانت له حسنات فان عذابه لايستمر إلا اثنتى عشرة الف سنة ، يرفع بعدها الى الجنة الموعودة لعباده الصالحين . .!! ويحدثنا صلحاء الزرادشة بأن الزمان قد قرب من نهايته المحتومة ، فقد حدثت ولادة « زردشت » فى فترة الثلاثة آلاف سنة الأخيرة من حياة هذا العالم ، فاذا ظهر من نسله ثلاثة أنبياء ، ينشرون دينه فى فترات متباينة ، فان القيامة تقوم ويسود حكم « آهورا مزدا » ويتحطم « أهرمن » وأتباعه تحطيما كاملا لاتقوم لهم من بعده قائمة ، فتدب الحياة من جديد فى الارواح الخيرة وتنبعث من جديد بعثها الاخير ، ويخلو العالم إلى أبد الآبدين من أعراض الشيخوخة والهزال والموت والانحلال .

وفى هذا كله مثل آخر لما نصادفه فى « كتاب الموتى » عن التهديد بيوم القيامة الرهيب ، وربما انتقلت فكرة البعث هذه من الفارسية إلى اليهودية فى أيام سيطرة الفرس على فلسطين ، وهى فكرة رائعة .. لجأوا اليها لتخويف الأطفال حتى يدينوا بالطاعة لآبائهم ؛ وليس من شك أن من أهم الأغراض التى يقوم الدين على تأديتها تمهيد الواجب العسير الشاق الذى يلزم الكبار بتأديب الصغار وتقويمهم ، ومن أجل هذا وجب أن نعترف بفضل موابذة الزردشتيين ومهارتهم فى اصطناع هـذه الأسس الدينية الفائقة التى جعلت دينهم ديناً رائعا يمتاز عن سائر الأديان المنتشرة فى ذلك الزمان بعـدم دعوته إلى المحاربة وسفك الدماء والخصام ، و بنفوره الشديد من عبادة الدمى والأصنام ، و ببعده عن الاعتقاد فى الخرافات والاوهام ، بحيث حُقَّ له أن يبقى سليما لا يتطرق إليه الزوال السريع

ومن المعروف أن هذا الدين استطاع تحت حكم « دارا الاول » أن يصبح المصدر الروحى للأمة الفارسية فى أوج رفعتها ؛ ومن المعروف أيضا أن الانسانية تحب الشعر أكثر مما تحب المنطق ، وأن الناس لا يطيقون الحياة دون أن يصوغوا لأنفسهم أسطورة يبدعها الوهم والخيال ، فنتج عن ذلك كله أن ظل جماعة من الناس يخلصون العبادة لـ « مثرا » إله الشمس و « أناهيتا » إلهـة النمـاء والخصوبة والتوالد والأنوثة ، بالاضافة الى اخلاصهم لهذا الدين الرسمى الذى دعا إلى عبـادة « آهورا مزدا » . وقد أخذ أسما « مثرا » و « أناهيتا » يذكران فى النقوش الملـكية فى أيام « ارتاكزرسيس الثانى » وانتشرت منذ ذلك الوقت عبادة « مثرا » بصورة قوية ، وأخذت عبادة « آهورا مزدا » تخبو وتتضاءل حتى إذا كانت القرون الميلادية الأولى ، أخذت عبادة « مثرا » تنتشر فى أرجاء الدولة الرومانية ، فمثلوه بشاب مقدس ، رائع الصورة بهى الجمال ، تحوط رأسه

هالة من الضوء ، رمزاً لتمثل شخصيته بالشمس منذ أقدم الأزمنة ؛ وقد ساعد هذا التصوير فى نشأة الاحتفال بيوم الميلاد لدى المسيحيين (١) . ولو كان « زرتشترا » مخلداً ولم يصبه الفناء لأحس بالفضيحة والعار عندما أخذ الفرس بعد موته بقرون قليلة يقيمون فى كثير من مدنهم جملة من التماثيل لـ « أناهيتا (٢) » ولساءه على وجه التأكيد أن يجد كثيراً من صفحات كتابه المقدس قد اقتصرت على إيراد أنواع شتى من الصيغ السحرية التى يراد بها شفاء الأمراض أو الرجم بالغيب أو الشعوذة . ومع ذلك فقد استطاع الأقدمون من كهنة المجوس — أو « الرجال العقلاء » كما يسمون — أن يقهروا هذا المذهب ، بأن فعلوا به ما يفعله عادة رجال الدين ، إذا شاءوا التغلب فى النهاية على كل ثائر قوى أو ملحد عنيد ، فأدخلوا مذهب « مثرا » فى معتقداتهم ، وسلكوا « مثرا » فى عداد آلهتهم ، ثم أسدلوا عليه بعد ذلك ستاراً كثيفاً من الاهمال والنسيان .

وقد عرف عن كهنة المجوس أنهم استطاعوا أن يؤثروا فى قومهم تأثيراً كبيراً لا حد له ، وأنهم فازوا كذلك عند اليونانيين بشهرة عريضة فى الحكمة والعلم وبما كانوا يأخذون به حياتهم من الخشونة والاقتصار على زوجة واحدة ، وبما كانوا يتبعونه فى التطهر من مختلف المراسم والطقوس الدينية ، وبما كانوا يراعونه من الامتناع عن أكل اللحوم والاقتصار فى ملبسهم على كل بسيط

---

(١) كان يوم الميلاد فى الأصل عيدا شمسيا يحتفلون فيه لدى الانقلاب الشتائى (أى قرب الثانى والعشرين من ديسمبر) بطول النهار وتغلب الشمس على أعدائها ، وقد انقلب هذا العيد الشمسى إلى عيد يحتفل به أتباع « مثرا » ثم أصبح فى النهاية يوما مقدسا لدى المسيحيين .

(٢) هى لدى الفرس بمثابة « أفروديت » لدى اليونان وتسمى بالعربية « الزهرة »

خشن . وقد نتج عن ذلك كله أن تتلمذ لهم ملوك الفرس وأصبحوا لا يقدمون على عمل خطير دون أن يستشيروهم و يعملوا برأيهم . فأما المبرزون من هؤلاء الكهنة فكانوا « حكماء » بمعنى الكاهنة ، وأما العاديون منهم فكانوا عرافين أومشعوذين ، يقتصر عملهم على الحدس بأحكام النجوم وتفسير الرؤى والأحلام . وتتابعت السنون بعد ذلك فأخذت العناصر الزردشتية فى الدين الفارسى تضمحل وتخبو ، ثم أصابتها نوبة من نوبات الانتعاش تحت حكم « الدولة الساسانية » من ٢٢٦ — ٦٥١ م ولكنها ما لبثت أن استؤصلت نهائياً بالفتح الاسلامى لايران، ثم بغارة التتار عليها فيما بعد . ولم يعد للديانة الزردشتية بقاء فى أيامنا هذه إلا بين جماعات صغيرة من معتنقيها فى ولاية « فارس » يضاف اليهم تسعون ألفاً من « البارسيين » فى بلاد الهند ، وهؤلاء جميعاً يدرسون فى دقة وعناية كتبهم القديمة ، ويقدسون النار والأرض والماء والهواء ، وينشرون موتاهم فوق « بروج الصمت » لتأكلها الجوارح والكواسر حتى لا تتلوث بها العناصر المقدسة إذا ما أحرقوها أو دفنوها فى بطن الأرض . وهم أناس يمتازون بأخلاق قويمة وصفات سليمة ، جعلتهم الشاهد الماثل لأعيننا حتى اليوم على أن مذهب « زردشت » يشتمل على كثير من العناصر القوية التى تعمل على تمدن الجنس البشرى وإسعاده .

٧
آداب الفرس وأخلاقهم

القوة والشرف
مراسم التطهر والنظافة
آثام الجسد
العذارى والعزاب
الزواج والنساء والاطفال
أفكار الفرس فى التعليم والتربية

أما ما بقى فى طباع الميديين والفرس من غلظة وقسوة لم توح بهما تعاليم دينهم التى رأيناها ، فقد أصبح مثاراً للدهشة والحيرة ... فقد سجل « دارا الأول » وهو أكبر ملوكهم إطلاقا فى نقش من النقوش المسطورة فى حجر « بِهِستُون » العبارات التالية التى تدل على كثير من القسوة والجفاء :

« لقد قبضوا على « فراورتش » وأحضروه إلى ، فأمرت »
« بقطع أنفه وأذنيه ، ثم قطعت لسانه وسملت عينيه ، ثم أبقيته »
« فى قصرى مقيداً بالسلاسل والأغلال ، فلما رآه جميع الناس »
« على هذه الحال ، أمرت بصلبه فى مدينة « اكباتانا » . وقد »
« أيدنى « آهورا مزدا » بعضده المتين ، فاستطعت برعايته أن »
« أقهر جيوش الثائرين .. وتمكن رجالى من القبض على »
« سترنكاخارا ، فلما أحضروه أمامى قطعت أنفه وأذنيه »
« وسملت عينيه ، وأبقيته فى قصرى مصفداً بالأغلال ، فلما »
« فرغ جميع الناس من مشاهدته على هذه الحال ، أمرت بصلبه »
« والقضاء عليه ... !! »

وتشهد حوادث القتل التى ذكرها لنا « پلوتارك » فى حياته عن « ارتاكزرسيس » الثانى، على أن الملوك المتأخرين كانوا يتصفون بكثير من القسوة وسفك الدماء، وإنهم كانوا يبطشون بالخونة بطشاً لا رحمة فيه ولا شفقة، فاذا اتهم القادة والزعماء بالخيانة، كان نصيبهم القتل والصلب، وبيع أتباعهم بيع الرقيق، واستبيحت مدنهم للغارة والسلب، وفتيانهم للقتل والخصى، وفتياتهم للمتعة والسبى.

ومن الحق أن نقرر فى هذه المناسبة، أنه ليس من العدل فى شىء أن نحكم على شعب بما ورد فى سيرة ملوكه وحكامه ؛ فالفضيلة لا وجود لها فى صحائف الأنباء والأخبار، وفضلاء الرجال شبيهون بالأمم الفاضلة لا ذكر لهم ولا تاريخ ؛ ولكننا مع ذلك كله نجد جملة من ملوك الفرس أظهروا فى مناسبات قليلة أمثلة رائعة من أمثلة السمو والغفران حتى اشتهروا بين اليونان، الذين لا يرعون عهداً، بأنهم أهل العهد والوفاء، فكانت المعاهدات التى تعقد معهم نافذة المفعول، يمكن الركون اليها والاعتماد عليها، بحيث أخذوا يفخرون على من عداهم بأنهم يحفظون الوعد ولا ينقضون العهد. وأروع شاهد على ما امتاز به الفرس من خلق متين سليم، إنه كان من أندر النادر أن تؤجر فارسياً لتحارب به فارسياً آخر، بينما كان من السهل اليسير أن تؤجر يونانياً لتحارب به يونانياً آخر (١).

وفى الحق إن طبائع الفرس كانت أكثر اعتدالا مما توحى به أنباء تاريخهم

(١) عندما كان الفرس يحاربون الاسكندر فى موقعة « جرانيقوس » كان أغلب مشاتهم من مأجورى اليونان، كذلك كان الحال فى موقعة « ايسوس » فقد كان قلب الجيش الفارسى مكونا من ثلاثين ألف جندى يونانى من المأجورين.

إذا حدثتنا عن الدماء المهرقة على أيديهم والسيوف المصلته فى أكفهم ؛ فالفرس قوم أحرار يمتازون بالصراحة والكرم والمحبة والسخاء ، وهم يدققون فى رعاية « آداب السلوك » كما يفعل الصينيون ، فاذا تقابل نظيران احتضن الواحد منهما الآخر عناقا وقبله فى شفتيه ، أما إذا قابل أحدهم من هو أعلى منه مرتبة وقدراً فعليه أن ينحنى له انحناءة كبيرة كلها خشوع واحترام ، فاذا قابل من هو دونه قدّم له وجنته ليقبلها ، فاذا تقابل مع فرد مع عامة الناس حنى له رأسه قليلا فى دعة وهدوء . وهم يستنكرون تناول الطعام أو الشراب على قارعة الطريق ، ويكرهون البصق أو التمخط فى مكان عام ، وكانوا حتى حكم « اكزرسيس » معتدلين فى تناول الأطعمة والأشربة ، يكتفون عادة بأكلة واحدة طوال اليوم ، ويقتصرون من أنواع الأشربة على الماء العذب الرقراق . وكانوا يعتبرون النظافة أطيب نعم الحياة ، ويرون أن الأعمال الطيبة تصبح عديمة الجدوى إذا أدتها أيد قذرة ملوثة ، وإذا لم يستطع المرء القضاء على ما فى جسده من قذر ودنس ، فلا سبيل للملائكة إلى السكنى فى جسده وبدنه ؛ وقد فرضوا أقسى أنواع العقوبات على من ينشرون الأمراض السارية ، وأصبح من عادتهم أن يجتمع الناس فى أيام الاعياد وهم متدثرون بالملابس النظيفة البيضاء . وجمعت « الأفستا » كما جمعت ديانة البراهمة واليهود كثيراً من مراسم التطهر وطقوسه ، وخصصت أجزاء كاملة من كتابات « زردشت » لبيان المراسم المعقدة التى كانوا يتبعونها لتطهير البدن والروح ، وكانت قلامات الأظافر وقصاصات الشعر والجهر بالصوت تعتبر من الأشياء الدنسة التى يتجنبها الفارسى العاقل مالم تكن قد طهرت تطهيراً كاملا .

وكان الدين الزردشتى كذلك قاسياً فى معاقبة خطايا الأجساد . فكان

الاستمناء يعاقب بالجلد ، وكان الرجال والنساء الذين يرتكبون الفحش أو المساحقة يعاقبون بالقتل « لأنهم أولى به من الأفاعى الزاحفة أو الذئاب العاوية ».

ومع ذلك فقد وردت نبذة فى تاريخ « هرودوت » تبين لنا أن التقاليد المرعية حادت قليلا عن التعاليم الشرعيــة فى مسألة ذكرها لنا ذلك المؤرخ عندما قال : « إن الفرس يعتقدون أن خطف النساء لا يقوم به إلا الأشرار من الناس، ومع ذلك فانك تعتبر من أشد الناس جهلا وغباء إذا أتعبت نفسك فى استرجاعهن والثأر لهن ..!! أما إذا أهملتهن فى هذه الحالة فانك من أشد الناس عقلا واتزانا ، لأن الحقيقة الواضحة تقرر أن اغتصاب النساء لن يتأتى إلا إذا كن راغبات فيه راضيات به ..!! » وقد حدثنا فى مكان آخر بأن « الفرس تعلموا من اليونان حب الغلمان » ونحن لا نميل إلى تصديق هذا المؤرخ النابه فى كل ما ذكر من أخبار ، ولكننا نحس فيما أورده فى هذه العبارة ، بشىء من الصدق تشهد به شدة العقوبة التى تقررها « الافستا » للواط ، فانها تقرر فى أكثر من موضع .. « إن اللواط جريرة لا غفران لها ، ولا يستطيع شىء فى الوجود أن يكفر عنها » .

ولم تكن تعاليم « زردشت » تشجع العذارى والعزاب على كثرة الزواج ، ولكنها مع ذلك كانت تسمح بالزواج من أكثر من واحدة ، كما كانت تسمح باتخاذ الخليلات والمحظيات ، لان الشعوب المحاربة تحتاج دائماً إلى الأطفال والفتيان ؛ وتقول « الافستا » : « إن الرجل المتزوج خير بكثير من الرجل الأعزب ، والرجل الذى له منزل خير بكثير ممن لا منزل له ، والرجل المعيل خير بكثير ممن لا عيال له ، والرجل الثرى خير بكثير ممن لا ثراء له » ... وهذه

المقاييس الاجتماعية التى وردت فى هذه العبارات معروفة لدى جميع الأمم والشعوب ، فنظام الأسرة لديها جميعاً هو أقدس النظم وأسماها وأجدرها بالرعاية والصيانة ؛ ويدعو « زرتشترا » فى هذه المناسبة إلهه فيخاطبه بقوله : « ياإلهى..! يامن صنعت هذا الكون المادى برمته ... أى مكان تسعد به الارض أكثر من غيره ...؟! » فيجيبه « آهورا مزدا » بقوله : « إنه المكان الذى يبنى فيه واحد من أتباعى منزلا ، ويجعل فى هذا المنزل مكانا للكاهن والماشية والزوجة والأطفال والأنعام ؛ فتكثر الماشية ، وتخصب الزوجة ، وينمو الأطفال ، وتتقد النيران ، وتزداد نعم الحياة . » ... وكان الكلب دون سائر الحيوانات يعتبر جزءاً متمماً للأسرة ، كما ورد فى آخر الوصايا التى جاءت على لسان موسى .

وكان من الواجب على كل أسره تمر بها دابة ضالة يثقلها الحمل أن تؤويها إلى منزلها وتعنى بها العناية الكاملة ؛ وقد خصصت عقوبات شديدة لمن يقدم طعاما فاسداً أو شديد السخونة لكلب من الكلاب ؛ وجعلوا جزاءمن يضرب كلبة أتاها ثلاث كلاب أن يجلدوه ألف جلدة وأربعمائة جلدة ؛ وكان الثور عزيز القدرعندهم لقدرته الكبيرة على كثرة النسل والانتاج ، كما كانوا يقدمون للأبقار كثيرامن الادعية والقرابين .

فاذا بلغ الفتيان سن الرشد أخذ الوالدان فى اختيار الزوجات الصالحات لهم ، وكان مدى هذا الاختيار واسعاً ، لأن كثيرا من هذه الزيجاب كانت تعقد بين الأخ وأخته ، أو بين الوالد وابنته ، أو بين الولد وأمه . أما الخليلات والمحظيات فكن متعة للأغنياء والأثرياء ؛ وكان من دأب الطبقة العليا ألا يخرجوا للحرب إلاوهن فى رفقتهم . وقد ذكروا أن « حريم » الملك فى أيام الامبراطورية الأخيرة كان

يشتمل على عدد من المحظيات ينحصر بين ٣٢٩ و ٣٦٠ محظية ؛ لأنه أصبح من التقاليد المرعية ألا ترقد امرأة فى فراش الملك أكثر من مرة واحدة ، إلا إذا كانت رائعة الحسن بالغة الجمال .

وكانت المرأة عند ظهور «زردشت» تتمتع بمكانة عالية فى إيران . وتذهب الأخبار القديمة إلى أنها كانت تتمتع بحريتها الكاملة فى ارتياد المجتمعات والمنتديات دون أن تتنقب أو تحتجب ؛ وأنها كانت تملك الاملاك وتتصرف فيها كيفما شاءت ؛ وأنها كانت تتمتع بما تتمتع به المرأة الحديثة من حق إدارة شئون زوجها باسمه أو بوكالة منه . ولكن مكانتها هذه أخذت تتقلص وترجع القهقرى بعد وفاة « دارا الأول » ، وكان هذا ملاحظا على الخصوص بين الطبقة الغنية من النساء ، أما الفقيرات منهن فقد احتفظن بحريتهن فى التنقل لاضطرارهن إلى الكد والعمل ؛ وفيما عدا ذلك من الأحوال كان اعتكاف النساء عن المجتمعات أمرا اضطراريا يلتزمنه فى أوقات الحيض والولادة ، وقد امتد هذا الاجراء حتى شمل حياة النساء الاجتماعية على العموم ، وكان أساسا للنظام الاسلامى المعروف باسم الـ « برده » (١) ونتج عن ذلك أن نساء الطبقة العليا أصبحن لا يجسرن على الخروج إلا فى هوادج تغطيها السدل والحجب ، وأصبح محظورا عليهن الاختلاط بالرجال فى المجتمعات الخاصة أو العامة ، بل لقد منعت النساء المتزوجات من رؤية أدنى الرجال قرابة بهن ولو كانوا آباءهن أو إخوتهن. وترتب على ذلك بالضرورة أننا لا نجد للنساء ذكرا أو تصويرا فى كافة النقوش أو التماثيل التى بقيت

---

(١) المترجم : كلمة فارسية معناها أصلا الستار أو الحجاب ، وقد أطلقوها على الحرم لاستتار النساء فيه عن أعين الرجال .

لنا من إيران القديمة . أما الخليلات والحظيات فكن على عكس ذلك يتمتعن بحرية كبيرة ، لأن المفروض فيهن أنهن يقمن بالترفية عن مولاهن وضيوفه . وقد قوى نفوذ النساء فى العصور المتأخرة، وتحكمن فى شئون القصر، ونافسن الخصيان فى الدأب على الدس والتآمر ، وسابقن الملوك فى ابداع وسائل التعذيب والتنكيل (١)

ولم يكن أدعى إلى كسب الاحترام والتبجيل من التزوج وإنجاب الاطفال لأن الفرس كانوا يغالون فى تقدير الأبناء ويعتبرونهم ثروة اقتصادية لآبائهم ، وثروة حربية لملوكهم . أما البنات فكانت ولادتهن مجلبة للوعة والحسرة لأن الغرض من تربيتهن كان منصباً على إعدادهن لمنزل رجل آخر يجنى فائدتهن . ومما قاله الفرس فى هذه المناسبة : « إن الرجال لا يبتهلون إلى الله مطلقاً من أجل البنات ، وكذلك الملائكة لا تعتبرهن بركة يجوز منحها لبنى البشر . . ! »

وكان من عادة الملك فى كل سنة أن يرسل الهدايا لكل والد كثر أبناؤه وعياله ، وكأنما هو بذلك يقدم له عربونا لقاء أرواح بنيه ودمائهم .

وكان فجور النساء وزنا المتزوجات منهن جرمين قابلين للغفران مالم يقترنا بإجهاض الحمل ، لأن الاجهاض فى رأيهم جريمة تفوق ما عداها من الجرائم ولا يقل عقاب مرتكبها عن الاعدام . وقد ورد فى إحدى الشروح القديمة

---

(١) كانت « استاتيرا » زوجة مثاليه الملك « ارتاكزرسيس الثانى » ولكن أمه « باريساتس » حقدت عليها وقتلتها مسمومه ، ثم شجعت الملك على أن يتزوج ابنته « أتوسا » وقامرت معه على حياة خصى من الخصيان فلما لعبا النردوكسبت ، أمرت بسلخة حيا . وأمر « ارتاكزرسيس » فى مرة من المرات بأن يقتلوا جنديا كاريا ، ودخلت « باريساتس » بالأمر وأدخلت على حكم الملك بعض التحسينات بأن أمرت بالجندى أن يشد من أطرافه عشرة أيام ثم يسملون عينيه ثم يصبون فيهما وفى أذنيه الفضه المصهوره حتى يموت على هذه الصورة الشنعاء

وهو الـ « بُنْدَهِشْ » وصف لجملة وسائل لمنع الحمل ، ولكنه حذر الناس من استعمالها ، وقد جاء فى الكتاب المقدس الفارسى عند ذكر النسل : « إن المرأة إذا خرجت من الحيض تبقى عرضة للحمل عشرة أيام بلياليها إذا ما اقترب منها الرجال » .

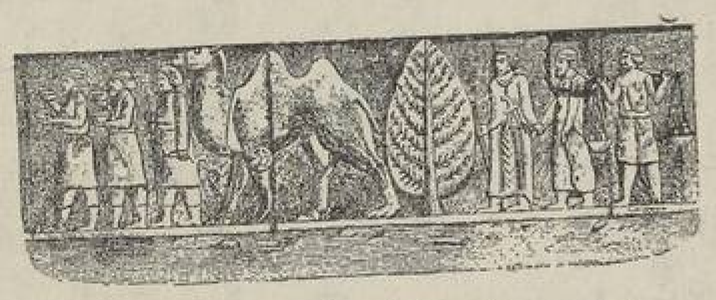
وكان من عادة الفرس أن يتركوا الطفل فى حضانة أمه حتى الخامسة من عمره ، ثم يرعاه أبوه بعد ذلك حتى السابعة ، فاذا بلغها أدخلوه المدرسة .

وكان التعليم مقصوراً فى أغلب الأحوال على أبناء الأغنياء ، يتولاه جماعة من الكهنة والقساوسة ، يجتمعون بالتلاميذ فى المعابد أو فى بيوتهم الخاصة. وكان الفرس يحرصون كل الحرص على ألا تصاقب المدرسة سوق البلدة ، حتى لاتفسد أخلاق الصغار بما يرونه منتشراً فى الأسواق عادة من أنواع الكذب والغش والحنث بالايمان . وكانت كتب الدرس عبارة عن الـ « أفستا » وشروحها ، وهى جميعها تشتمل على موضوعات تتصل بالدين والطب والقانون، وكانت الوسيلة فى تعلمها مقصورة على حفظ مقطوعات طويلة منها عن ظهر قلب ثم إنشادها و إعادتها غيباً . أما أبناء الطبقات المترفة فكانوا لا يكلفون بتعلم الكتابة ورقم الحروف ، بل يقتصر تعليمهم على ثلاثة أشياء هى ركوب الخيل والرمى بالقسى وقول الصدق . وكانت الدراسات العالية بين أبناء الطبقة العليا تمتد إلى سن العشرين أو الرابعة والعشرين ، فيتخصصون جميعاً فى فنون الحرب وأنواع القتال ، و يمهد بعضهم لشغل المناصب العامة أو الولاية على الأقاليم

وكانت طريقة التعليم فى هذه المدارس العالية عسيرة شاقه ، فكان على الطلبة أن يستيقظوا مبكرين ، وأن يأخذوا فى العدو أشواطاً بعيدة ، وأن يركبوا

الجياد الجامحة ركضاً فى سرعة فائقة ، وأن يخرجوا للعوم والصيد وتتبع اللصوص، وأن يزرعوا الحقول ويغرسوا الأشجار ، وأن يسيروا المسافات البعيدة فى لفحة الشمس القائظة أو لذعات البرد القارسة ، وأن يتعلموا كيف يتحملون شدائد الجو وتقلباته ، وكيف يقتاتون بأحقر الأقوات والأطعمة ، وكيف يعبرون مجارى الأنهار دون أن تبتل أرديتهم أو معداتهم .

ولا شك أن طريقة التعليم هذه كانت قمينة بأن تثلج خاطر « فردريك نيتشه » فى ساعاته الحائرة التى استطاع أن يتناسى فيها ثقافة اليونان القديمة وما اتصفت به من تنوع بهيج وبريق أنيق .



جماعة من وفود الشعوب الخاضعة تجلب الجزية إلى ملوك فارس

٨

العلوم والفنون

الطب والفنون الصغيرة
مقبرتا « قورش » « ودارا »
قصور پرسبوليس
إفريز الرماة
تقدير الفن الفارسى

تعمد الفرس فيما يظهر أن يهملوا تعليم أبنائهم أى فن من الفنون إلا فن الحياة، فكانت الآداب فى رأيهم متعة قليلة الجدوى ، وكذلك كانت العلوم سلعة فى أمكانهم أن يستوردوها من « بابل » . وفى الحق أنهم عشقوا الأشعار والروايات الخيالية ، ولكنهم تركوا الاشتغال بها لجماعة من المأجورين والمستضعفين وفضلوا الانغماس فى الأحاديث الطيبة الشيقة ، مضحين بذلك بما يجلبه البحث والاستقراء من متع ذهنية هادئة صامتة . وكانت أشعارهم تغنى أكثر مما تنشد ، فاذا مات المغنون ماتت بموتهم هذه الأشعار ، وذهبت بذهابهم هذه القصائد والمنظومات .

وكان الطب فى البداية وظيفة يقوم بها الكهنة ورجال الدين ، وكان هؤلاء يمارسونه وفقاً لمبدأ واحد يقرر أن « الشيطان » قد خلق ٩٩٩ ر ٩٩ نوعا من الأمراض والعلل ، وانه يمكن شفاؤها جميعاً بخليط من السحر والأدوية . وقد فضلوا فى ذلك استعمال الرقى والتعاويذ على استعمال الأدوية والعقاقير ، قائلين

أن الرقى إذا لم تشف المرض فهى لاتقتل المريض، وأما العقاقير فلا يمكن أن يقال عنها مثل هذا القول . ومع ذلك فقد ارتقى الطب المدنى بنمو الثروة فى « إيران ». حتى إذا كان عصر « ارتا كزرسيس » نشأت جمعيـة طبية حسنة التنظيم والتنسيق تضم جماعة من الأطباء والجراحين ، حددت أجورهم كما فعلت قوانين « حامورابى » وفقاً لمكانة المريض ومقامه الاجتماعى . وقد جرت العادة على معالجة رجال الدين مجانا ، وكان لزاما على الطبيب الجديد أن يبدأ حياته العملية بمعالجة الكفار والأجانب فترة من الزمن ، كما نفعل نحن الآن حين يبدأ أطباؤنا الناشئون بمعالجة المرضى من المهاجرين والفقراء لمدة سنة أو سنتين .

وقد أمرهم « إله النور » بذلك كما يبدو من المقطوعة التالية :

« ياإله الكون . . . يا ايها الرب المقدس.. ! دعنى اسألك »
« عمن يشاء من عبادك ان يمارس فن التطبيب والشفاء ، أيمارسه »
« اولا على المرضى من عباد آهورا مزدا ، ام يجربه اولا على »
« المرضى من عبدة الشيطان ... ؟. »

« فأجاب « آهورا مزدا » على هذا السؤال بقوله : »

« عليه أن يجرب خبرته أولا على عبدة الشياطين قبل أن »
« يجربها على عبدة رب العالمين ، فاذا استعمل مشرطاً فى جراحة »
« يجريها لواحد من عبدة الشياطين فمات ، واستعمله ثانية لواحد »
« آخر مثله فمات ، ثم استعمله مرة ثالثة لثالث مثله فمات ، فانه »
« لايصلح لممارسة الطب إلى أبد الآبدين ، وعليه أن يقلع عن »
« معالجة المرضى من عبادى الصالحين..!! فأما إذا استعمل مشرطا »
« فى معالجة واحد من أتباع الشيطان فشفاه ، ثم استعمله مرة »
« ثانية فى معالجة واحد آخر مثله فشفاه ، ثم استعمله مرة ثالثة »

«فى معالجة ثالث مثله فشفاه، فانه يصلح لممارسة الطب إلى أبد»
«الآبدين، وله متى شاء أن يعالج بالجراحة كل مريض من عباد»
«الله الصالحين ..!!»

* * *

وقد وقف الفرس أنفسهم على خدمة الامبراطورية، فاستنفدوا بذلك جميع وقتهم ونواحى نشاطهم فى الحرب والقتال، واضطروا كالرومان إلى أن يعتمدوا إلى حد كبير، فى ترقية فنونهم بما يجلب إليها من الخارج. ومن الحق أن نذكر أنهم كانوا يمتازون بإحساس مرهف لتقدير الأشياء الجميلة، ولكنهم مع ذلك كانوا يعتمدون فى صنع هذه الطرف والبدائع على الفنانين الأجانب أو الذين ولدوا من أصل أجنبى، ولم يبخلوا مطلقا عن الانفاق عليها مما يجبونه من موارد الخراج والضرائب.

وكانوا يمتلكون المنازل الجميلة والحدائق الغناء، التى تكبر وتتسع أحيانا حتى تصبح حظيرة للصيد والقنص أو مأوى لمختلف الحيوانات كحدائق الحيوان فى عصرنا الحاضر.

وكانوا يمتلكون فاخر الأثاث والرياش، فيمتلكون الموائد المصفقة برقائق الفضة والذهب، ويمتلكون الأرائك المغطاة بأبهج الأغطية وأجملها، ويمدون البسط والسجاجيد الرخوة ذات النسيج اللين والألوان البهيجة الشبيهة بألوان الارض والسماء.

وكانوا يشربون فى كؤوس من ذهب، ويزينون موائدهم ومناضدهم بالأصص

الجميلة التى تبدعها أيدى ألاجانب من مهرة الصناع والفنانين [١] .

وكانوا يحبون الغناء والرقص، والعزف على العود والناى، والنقر على الدفوف والطبول . وكانت حليهم كثيرة مختلفة الأنواع ، تتدرج من التيجان والأقراط حتى تصل إلى الخلاخيل والأحذية المذهبة ؛ وكان الرجال أيضاً يتأنقون بأنواع الحلى يشدونها فى رقابهم أو يعلقونها فى آذانهم وسواعدهم . فأما اللؤلؤ والياقوت والمرجان واللاجورد، فكانوا يجلبونها من خارج ديارهم ؛ وأما الفيروزج فكانوا يجلبونه من داخل بلادهم ومناجمهم ، وقد اعتادت طبقة النبلاء والأغنياء أن تتخذ منه أختامها . . . وكثيراً ما وجدت بالاضافة إلى ذلك أحجار كريمة ذات أشكال شيطانية غريبة، مثلوا بها ماتصوروه من أرواح شريرة وشياطين كثيرة؛ وكان الملك يجلس على عرش من ذهب ، يقوم على أعمدة من ذهب ، تعلوه مظلة من ذهب .

* * *

أما فن البناء والعمارة فهو الفن الوحيد الذى استطاع الفرس أن يستقلوا فيه بطريقتهم الخاصة . وقد بنوا فى عهد «قورش » و« دارالاول » و « اكزرسيس الاول» عدداً من المقابر والقصور، لم يستطع علماء الآثار حتى الآن الكشف عنها بتمامها ، ولكن ربما جاء الوقت القريب الذى تستطيع فيه المعاول والفؤوس

(١) عرضت إحدى هذه الاصص فى « المعرض الدولى للفنون الفارسية » فى مدينة لندن سنه ١٩٣١ فكانت الوحيدة التى اشتملت على نقش قديم يدل دلالة ظاهرة على أنها كانت مملوكة لـ «ارتاكزرسيس الثانى » .

أن تكشف لنا عن هـذه الدفائن الضائعة ، فيزيد بذلك تقديرنا للفن الفارسى وإعجابنا به [١] .

ومن حسن الحظ أن « الاسكندر » أبقى لنا فى مدينة « پازارجاده [٢] » مقبرة « قورش » بما امتازت به من جمال وروعة ، ولكن من الأسف أن طريق القوافل تخترق الآن مكاناً عارياً كانت تقع عليه من قبل قصور « قورش » وابنه المجنون « قمبيز » ، ولم يبق من أثر هذه القصور إلا جملة من الأعمدة المحطمة التى تتناثر هنا وهناك فى غير ترتيب ولا تنظيم ، وربما وجدنا بينها جزءاً جانبياً لباب من الأبواب القديمة مازالت منقوشة عليه صورة « قورش » بطريق الحفر والنقش البارز.

وعلى مقربة من هذا المكان ، وفى وسط الوادى ، تجثم مقبرة « قورش » فى جلالها الذى يمثل لنا حال الفن منذ أربعة وعشرين قرناً سالفة . . وهى عبارة عن ضريح بسيط من الحجارة ، يونانى المظهر والشكل ، يقوم على ساحة منبسطة ، ويبلغ ارتفاعه خمسة وثلاثين قدما ؛ ومن المؤكد أنه كان عند بنائه أكثر ارتفاعا مما هو عليه الآن ، وأنه كان قائما على نوع من القواعد التى تقوم عليها فى العادة مثل هذه الأبنية . . . وهو فى هذه الأيام مهجور موحش ، لا تكاد تبقى

---

(١) تشتغل الآن بعثة أمريكية موفدة من قبل « معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو » بالتنقيب عن الآثار فى مدينة « پرسبوليس » . ويرأس هذه البعثة الدكتور « جيمس برستيد » James H. Breasteq وقد استطاعت فى يناير سنة ١٩٣١ أن تكشف لنا عن مجموعة من التماثيل ذات قيمة أثرية تعادل جميع ما كان معروفا من التماثيل الفارسية الأخرى .

(٢) المترجم : تعرف لدى الفرس باسم « تخت مادر سليمان » .

منه إلا صورة شاحبة من شكله الأصلى ، محرومة من كل أثر من آثار الفن والجمال ؛ وكأنما أحجاره المهدمة المحطمة ، تقص علينا قصتها الحزينة الصامتة ، وتطاردنا بالحقيقة المريرة التى تحدثنا بأن الجماد أبقى خلوداً وأثبت وجوداً من سائر الكائنات وجميع المخلوقات .

فإذا تعمقنا جنوبا ، واقتربنا من مدينة « پرسپوليس[١] » وجدنا « نقش رستم » حيث تقع مقبرة « دارا الأول » . وقد قدت هذه المقبرة ، كالاضرحة الهندية ، فى جانب صخرى من الجبل ، ونحت مدخلها بطريقة خاصة جعلته يشبه واجهات القصور ؛ وعلى هذا المدخل بوابة صغيرة ، تحفها أعمدة أربعة رفيعة ، يعلوها إفريز نقشت عليه نقوش واضحة ، تمثل الشعوب التابعة لحكم « إيران » ، تتوجها منصة يبدو فيها الملك وهو يعطى عهده لاله الخير « آهورا مزدا » وللقمر . وقد استطاع الفنان الفارسى أن يخرج فكرته فى بناء هذه المقبرة إخراجا أرستقراطياً بديعاً ميزها بالحسن والبساطة والجمال .

***

أما الأبنية الفارسية الأخرى التى استطاعت أن تنجو من أفعال الحروب والغارات والسرقات وتقلبات الأجواء مدة السنوات الألفين الماضية فتكاد تنحصر فى مجموعة من حطام القصور وبقاياها ... ففى « إكباتانا[٢] » بنى الملوك الأقدمون قصراً ملكياً من خشب الساج والسرو المصفق برقائق المعادن ؛ وقد

---

(١) المترجم : يسميها الفرس « تخت جمشيد » .
(٢) المترجم : هى مدينه « همدان » المعروفه .

بقى هذا القصر قائما حتى أيام « بوليبيُوس » فى سنة ١٥٠ ق . م . ثم تهدم بعد ذلك فلم تبق منه باقية .

أما أروع الآثار الباقية من إيران القديمة ، فهى مجموعة الدرجات الحجرية والساحة الفسيحة وما عليها من أعمدة شامخة فى مدينة « پرسپوليس » . . . وقد أخذ الكشف عنها يزداد يوما بعد يوم حتى كاد يخلصها من قبضة الأرض الكتومة ذات الأسرار الخافية ، فانكشف لنا فى هذه البقعة المكان الذى اختاره ملوك الفرس منذ أيام « دارا » ليؤسس فيه كل واحد منهم قصراً منيفاً يحفظ به اسمه من جائلة الزمان وغائلة النسيان .

فأما الدرجات الخارجية التى تصل بين أسفل الوادى والساحة المرتفعة التى تقوم عليها هذه القصور فقد بذّت جميع مانعرفه من أبنية موجودة على وجه الأرض ، وهى فى أغلب الظن منقولة عن الدرجات المحيطة بأبراج الكلديين ومعابدهم المعروفة باسم الـ « زيجوارت » فى مدينة « أور » . ولكنها تمتاز عنها بجمال فريد النوع ، لأنها يسيرة المرتقى ، واسعة الجانبين ، يستطيع عشرة فرسان متحاذين أن يرتقوها جميعاً فى آن واحد وفى يسر وسهولة(١) . وليس هناك من شك فى أنها كانت مدخلا رائعاً لهذه الساحة الفسيحة التى اختاروها لبناء هذه القصور الملكية الشامخة . ويتراوح ارتفاع هذه الساحه مابين العشرين قدماً والخمسين قدما ، ويبلغ طولها الف قدم وخمسمائة قدم ، وعرضها الف قدم(٢) .

---

(١) وصف فرجيسون Fergusson هذه الدرجات فقال عنها : « إنها أبدع درجات موجودة فى أيه بقعة من بقاع العالم »

(٢) تجرى تحت هذه الساحه قنوات للتصريف معقدة النظام ، يبلغ قطر الواحدة منها سته أقدام ، وهى منحوته فى أغلب الاحيان فى جوف الصخر الصلد

فإذا التقت عند القمه هذه الدرجات الصاعدة من كلا الجانبين ، ألفينا أمامنا مدخلا واسعاً ، تحفه تماثيل هائلة لجملة من الثيران ، تعلوها رؤوس بشرية مجنحة على شاكلة مانجـد فى أردأ التماثيل الآشورية ؛ فاذا تقدمنا قليلا وجدنا على اليمـين أبدع أنموذج لفن العمارة الفارسى ممثلا فى قاعة « أكزرسيس » الأول المعروفه باسم « چهل منار » وهى تقع وما يتبعها من حجرات على مساحه من الأرض تزيد على مائة الف قدم مربع ، أى أنها بمعنى آخر أكثر إتساعا من « الـكرنك » أو أيه كاتدرائيه أوروبيه كبيرة ماعدا كاتدرائيه « ميلان ». ويصعد الصاعد إلى هذه القاعة « الـكبرى » بواسطة مجموعه أخرى من الدرجات كانت محفوفه بجدران قصيرة ، نحتت على جوانبها أجمل النقوش البارزة التى أمـكن العثور عليها حتى الآن فى إيران .

ولم يبق من الاثنين وسبعين عموداً التى بنوا عليها قصر « أكزرسيس » إلا ثلاثة عشر عمودا ما زالت قائمة بين حطام قصره ، وكأنها جذوع النخل العالية ، قد انتثرت فى أرجاء واحة مقفرة نائية .

وهذه الأعمدة الرخامية مقطعة الأوصال فى الغالب ، ولـكنها رغم ذلك من أبدع ما أخرجته يد الانسان ؛ فهى نحيلة دقيقة ، لا يوجد لها نظائر فى أعمدة مصر أو اليونان ؛ وهى كبيرة الارتفاع يبلغ علوها أربعة وستين قدما ، وقد حفروا على سيقانها ثمانيا وأربعين ثلمة صغيرة ، جعلوا قواعدها تشبه الأجراس المحفوفة بأوراق الشجر المقلوبة ؛ كما جعلوا رؤوسها على هيئة الزهور يعلوها صدران لثورين متقابلين ، تتصل رقبتاهما من الخلف ، لتستقر عليها عوارض السقف التى يغلب على الظن إنهم اتخذوها من الخشب دون غيره من المواد ، لأن مثل

هذه الأعمدة الرفيعة الهيّنة ، التى يبتعد الواحد منها عن الآخر بمسافة غير قصيرة ، لم تكن لتقوى على تحمل العوارض الحجرية الثقيلة . وقد صنعوا جوانب الأبواب والنوافذ من حجر أسود لامع ، ينبعث منه بريق شبيه ببريق الأبنوس ، وكسوا جوانب الجدران والحوائط بالقراميد اللامعة المنقوشة بأنصع صور الحيوانات والزهور .

أما ما عدا ذلك من الأعمدة المستديرة أو المربعة ، وما يوجد من درجات وسلالم أخرى فكانت من الحجر الجيرى الأبيض ، أو المرمر الأزرق الصلد .

وخلف « چهل منار » وإلى شرقيها ، تقع « قاعة الأعمدة المائة » ... ولكن من أسف إنه لم يبق من هذه الأعمدة إلا عمود واحد ، وإلا أحجار متناثرة ، لا يستطيع الناظر إليها أن يدرك صورة المكان على أصله إلا بمشقة وصعوبة ، ويقول قائل أنه من الجائز أن يكون هذان القصران أبدع قصرين بنتهما يد الانسان فى العالمين القديم والحديث .

وقد بنى « ارتاكزرسيس » الأول والثانى قصوراً فى مدينة « السوس » لم يبق منها إلا بعض دعائمها وأسسها ، وكانت هذه القصور مبنية من الآجر المحروق المكسو بأنصع أنواع القاشانى ذى الألوان الزاهية البهيجة ؛ وقد عثر المنقبون فى هذه المدينة أيضاً على « إفريز القناصة » وهم جماعة من المحاربين ، يغلب على الظن إنهم من « أخلص خلصاء الملك » لأنهم كانوا يقومون بحراسته والمحافظة على حياته .

ومما يؤيد هذا الرأى أن ملابس هؤلاء « القناصة » المهيبين ، تختلط بها جملة من الألوان الزاهية الواضحة، تجعلها أشبه بملابس الحفلات ، لا بملابس

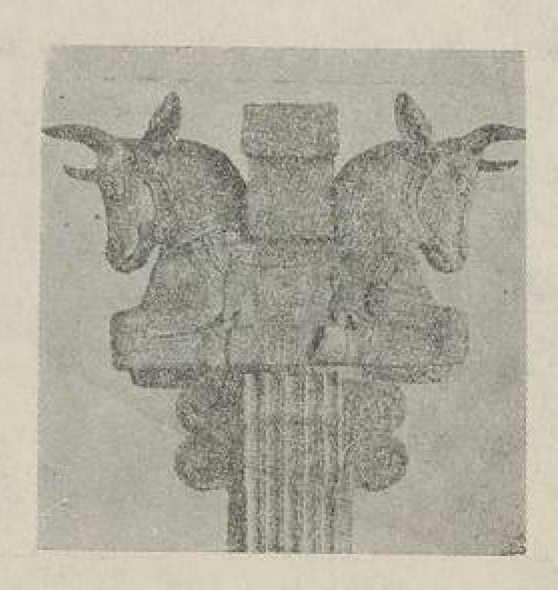
الحرب والقتال ؛ وكذلك بدت شعورهم ولحاهم مقصوصة قصاً مهذبا بديعاً ، لا تشعيث فيه ولا اضطراب ، كما بدت أيديهم ممدودة فى زهو وغرور بما انقبضت عليه أكفهم من رماح وحراب .

وقد كان النقش والحفر فى مدينة « السوس » وفى العواصم الايرانية الأخرى فنين غير مستقلين ، نشآ تبعاً للعمارة والبناء ، وكانت صناعة التماثيل فى أغلب الأحيان من عمل الفنانين الأجانب الذين يفدون على هذه العواصم من آشور وبابل واليونان .

وبهذا يمكننا أن نصف « الفن الفارسى » بنفس العبارة المختصرة التى نصف بها سائر الفنون العالمية الأخرى ، فنقول إن أكثر عناصره أجنبية عنه ؛ فمقبرة « قورش » منقولة عن مقابر « ليديا » والأعمدة النحيلة ما هى إلا تطور مهذب لأعمدة الآشوريين ، وصفوف الأعمدة والنقوش البارزة ماهى إلا فكرة مستوحاة من المصريين ، ورؤس الأعمدة التى جعلوها على شاكلة الحيوانات ما هى إلا عدوى سرت إلى الفرس من أهل « بابل » و « نينوى » . ومع ذلك كله فقد امتاز البناء الفارسى فى مجموعة بميزات خاصة ، جعلت فن العمارة الفارسية يبدو متميزاً عن سائر زملائه فى مختلف الأقطار ؛ وقد زودته هذه الميزات بذوق أرستقراطى رفيع ، جعله يسرع إلى تهذيب الأعمدة المصرية الشاهقة والكتل « الموصلية » الكثيفة لتصبح فى صورتها الجديدة فى مدينة « برسبوليس » مصدراً للروعة والأناقة والتناسب والدقة .

وسمع اليونان ، فى كثير من الدهشة والعجب ، بأوصاف هذه القاعات والقصور ، ونقل إليهم رجالاتهم ومبعوثوهم كثيراً من الأخبار الشائقة عن علو

الفن والرفاهية فى إيران ، فأسرعوا إلى محاكاة الفرس فى أعمدتهم المتوّجة بالزهور ورؤوس الحيوانات ، ولكنهم اكتفوا بأن يجعلوا رؤوسها ذات نتوءات ملساء على الطريقة « الأيونيه » . واختصروا فى طول هذه الأعمدة ، وقصروا سيقانها ، حتى تقوى على حمل ما يركب عليها من عارضات خشبية أو حجرية . ولم يبق بعد ذلك إلا فرق يسير جداً بين « برسپوليس » وبين « أثينا » من حيث العمارة والبناء . ثم استغرق الشرق الأدنى بعد ذلك فى سباته العميق ، ووضع تراثه الخالد برمته فى خدمة اليونان وتحت أقدامها .



رؤوس الأعمدة فى مدينة « برسبوليس »

٩

دور الانحطاط

كيف تزول الامم ... اكزرسيس
صفحة من القتل والغدر
ارتا كزرسيس الثانى ... قورش الاصغر ... دارا الاصغر
أسباب الانحطاط السياسيه والحربيه والخلقيه
الاسكندر يفتح إيران ويزحف على الهند

لم تدم الامبراطورية الفارسية التى أسسها « دارا » إلا قرنا واحدا على وجه التقريب ، ثم انقصم بعد ذلك عمودها الفقرى بما أصابها من ذلة وهوان فى الهزائم المتكررة التى لحقت بها فى الوقائع الثلاثة المعروفة « مراتون » و « سلاميس » و « پلاطيا » . فلما أخذ الأباطرة يستبدلون إله الحرب « مارس » بإلهة الحب والجمال « ڤينوس » انحدرت أمتهم فى هاوية سحيقة من الفساد والفتور والتبلد . وليس هناك من شك فى أن الاضمحلال الذى أصاب « إيران» قد سبق فى عامة أجزائه وسائر تفاصيله الاضمحلال الذى أصاب « روما » ؛ فأخذ عامة الناس ينحطون أخلاقيا ، ويتسفلون عاطفيا ، وأخذ أصحاب العرش يهملون الأمر حينا ويتمادون فى الغلظة والشدة أحيانا أخرى ؛ وانتقل الفرس ، كما فعل « الميديون » من قبلهم ، خلال أجيال قليلة ، من « الرواقية » المتعففة إلى « الأبيقورية » النهمة ، فأصبحت ألوان الأكل والطعام ملهاة يتلهى بها نبلاؤهم ويتفنن فيها سراتهم ؛ وكان من عادتهم ألا يأكلوا إلا مرة واحدة طيلة النهار ، فأخذوا الآن

يفسرون هذه القاعدة السليمة بما يجيز لهم أن يمدوا هذه الأكلة الواحدة من وقت الظهيرة إلى غسق الليل . . . ! ! وأصبح من دأبهم أن يملأوا بيوت طعامهم بمختلف الأطعمة والأشربة ، وأن يقدموا لضيوفهم الذبائح كاملة لم يقتطع شيء منها ، فإذا جلسوا للطعام ملأوا بطونهم بأنواع اللحوم الدسمة اللذيذة ، وإذا انفضوا منه صرفوا بقية وقتهم فى التفكير فى استنباط أخلاط جديدة أو أنواع مستحدثة من الأطرية والحلوى . . . وامتلأت بيوت الأغنياء بحاشية فاسدة مفسدة من الخدم والأتباع ؛ وانغمس جميع الناس فى احتساء الخمر حتى أصبحت العربدة نقيصة يشتركون فيها بجميع طبقاتهم وطوائفهم ؛ وانتهى كل ذلك إلى نتيجة واحدة مؤكدة ، هى أن الامبراطورية الفارسية التى خلقها « قورش » و « دارا » ثم ورثها « اگزرسيس » كاملة سليمة قد انتقلت إلى أيدى أعقابه وخلفائه فعملوا على هدمها وتحطيمها .

وكان « اگزرسيس الأول » ملكا كامل الصفات ؛ فكان من حيث المظهر ، طويل القامة قوى الهامة ، اتفق الجميع على جعله أكثر الرجال أناقة وجمالا فى ارجاء مملكته ، وربما كانت أناقته هذه سبباً من أسباب بلائه ونكبته ، لأن أصحاب الجمال من الرجال يمتلئون عادة بالزهو والعجب والغرور ، ولأن أصحاب القوة والشدة منهم لا بد أن تستذلهم امرأة تستطيع أن تكبح جماحهم وتجدع أنوفهم ؛ ومن هنا وقع « اگزرسيس » فريسة لعدد كبير من الزوجات والحظيات ، وأصبح بذلك مثالا يحتذيه رعاياه فى أشباع غرائزهم الجنسية وأهوائهم الحسية ، فلما دارت عليه الدائرة فى موقعة « سلاميس » لم تكن هزيمته مفاجأة غير متوقعة ، بل كانت حقيقة مقدرة منتظرة ، لأن عظمته قامت على أساس واحد فقط

هو حبه للعظمة ، دون أن يمهد نفسه لمواجهة الشدائد ، أو يزودها بما يحتاج إليه الملوك الحقيقيون من بأس وحزم . فلما انقضت عشرون سنة على حكمه الزاخر بأنواع الدسائس وضروب التراخي فى الادارة والتهاون فى إنفاذ الأمور ، قتله واحد من رجال القصر اسمه « ارتبانوس » ثم أخذوه فدفنوه فى كثير من مظاهر العظمة والأبهة والرضاء الشامل .

ولن تستطيع سجلات « روما » مهما فعلت أن تنافس سجلات « إيران » فيما اشتملت عليه من حوادث القتل الدامية ووقائع العدر النابية إلا بعد أيام « تبريوس » . ذلك لأنه عند ما تولى « ارتا گزرسيس الأول » عرش إيران أمر باعدام قاتل « ا گزرسيس » وبقى على العرش فترة طويلة ، أعقبه فيها على الحكم « ا گزرسيس الثانى » . ثم هم بهذا الملك الجديد أحد إخوته من أبيه واسمه « سُوجْدْ يَانُوس » فقتله بعد أسابيع قليلة من جلوسه على العرش ؛ وجاء دور هذا القاتل بعد ستة أشهر ، فقتله « دارا الثانى » وتمكن من إخماد الثورة التى تولاها « ترِيتو تشْمِيس » وقبض عليه وأمر بذبحه على ملأ من الناس ، ثم أخذ زوجه فمزقها إربا إربا ، ودفن أمه وسائر إخوته وهم أحياء لما تخمد أنفاسهم أو يجمد إحساسهم .

فلما مات « دارا الثانى » خلفه على العرش ابنه « ارتا گزرسيس الثانى » فحارب أخاه « قورش الأصغر » حربا عنيفة فى موقعة « كوناكسا » عندما حاول ان يستولى منه على مقاليد الحكم والسلطان ، فلما تمت له الغلبة على اخيه بقى فى الملك فترة طويلة تآمر عليه فيها ابنه « دارا » فقتله ، ومات كسير القلب حزين الفؤاد وهو يعلم أن ابنه الآخر « أوچوس » قد أخذ فى تدبير الحيلة لذبحه والقضاء عليه .

وتولى « أوچوس » الحكم مدة عشرين سنة ، مات بعدها مسموما على يد قائده « باجواس » . وأسرع هذا القائد الفاتك إلى تنصيب ابن الملك القتيل واسمه « أرسيس » فى مكان أبيه ، وأعقب ذلك بقتل إخوته ليضمن له الانفراد بالملك والسلطان ، ثم ما لبث أن أقدم على قتل « أرسيس » وأطفاله الصغار ، ونادى بالملك لواحد من أصدقائه المخنثين المسمى « كودو مانوس » وولاه العرش مدة السنوات الثمانى التالية باسم « دارا الثالث » وهو الملك الذى انتهى الأمر بموته والقضاء على مملكته فى موقعة « أربلا » على يد الاسكندر المقدونى

ومن المعروف أن الامبراطوريات بطبيعتها عرضة للزوال السريع والانحلال العاجل ، لأن الهمم العالية التى تخلقها سرعان ما تضمحل فى نفوس من يرثونها ؛ ولأن الشعوب الخاضعة لسلطانها سرعان ما تأخذ فى استجماع قوتها لكى تتمكن من استرداد حريتها الضائعة وحقوقها المسلوبة . فاذا أضفنا إلى ذلك كله أنه ليس من الطبيعى أن تبقى الشعوب ذات الألسنة المختلفة والديانات المختلفة والاخلاق والعادات المختلفة فى وحدة طويلة (لأن تكوينها العضوى يأبى مثل هذا الاتحاد والارتباط) ثم راعينا أن العنف والشدة هما وحدهما الكفيلان بالابقاء على هذا الرباط المصطنع ، وجدنا أن الامبراطورية الفارسية لم تستطع أن تفعل شيئاً طوال قرنين من الزمان للتقليل من مدى هذا الاختلاف البين فى تكوين شعوبها وتركيب عناصرها ، بل اكتفت على العكس من ذلك بأن تحكم جماعة من الشعوب المتباينة ، دون أن تفكر فى أن تخلق من قواها المتطاحنة دولة موحدة البناء مرتبطة الأجزاء متماسكة البنيان . وأخذت السنون تنقضى وتتصرم ، وكلما مضى منها عام اشتد الكرب وازداد الخطب وأصبح من العسير المحافظة على هذه

الشعوب فى وحدة وارتباط . ثم أخذت قوة الأباطرة فى التراخى والتقلص ، وازدادت أطماع الأمراء وجرأتهم ، فأخذوا يشترون القواد والوزراء ببذل المال لهم لكى يحدوا من سلطة الملك الجالس على العرش ولكى يخيفوه بضروب الوعيد وأنواع التهديد، ثم أقدموا على جمع الجيوش الجرارة والضرائب الفادحة، واشتغلوا بعد ذلك فى تدبير المكائد للقضاء على الملك القائم فى الحكم . وقد عملت الحروب المتصلة والفتن الدائبة على إنهاك « إيران » وإضعافها ؛ وماتت كثرة من أبنائها الشجعان فى حومات الوغى وحلبات النزال والطعان ، ولم يبق منهم إلا كل هزيل مستضعف جبنت نفسه وارتعدت فرائصه ، فلما أزفت الآزفة ، وأخذوا يجمعون الجيوش لملاقاة « الاسكندر » دلت الحوادث على أن جيش الايرانيين برمته ما هو إلا مجموعة من الجبناء الرعاديد ، قد حرموا كل مران حربى ، وكل جديد من آلات الحرب والقتال ، كما حرم قادتهم من كل دراية بالفنون الحربية ووسائل الكرّ والفرّ ؛ فلما وقعت الواقعة كانوا كالأطفال الضالين يرتكبون أشنع الأخطاء على غير هدى أو رشاد ، تاركين قواتهم دون أن يزودها من السلاح إلا بالخناجر القديمة ، وكأنهم لم يجمعوهم إلا ليجعلوهم هدفا ميسرا لرماح المقدونيين الطويلة وفيالقهم المنظمة العتيدة . ومن الحق أن نقرر هنا أن « الاسكندر » كثيرا ما لها وطرب ، ولكنه لم يكن يفعل ذلك إلا بعد أن يضمن كسب المعركة والفوز على خصومه . وقد أحضروا إليه قواد الفرس وأمراءهم فوجدهم عازفين عن الحرب والقتال ، ووجد الجيش الايرانى خلوا من الجنود الحقيقيين إلا من كان منهم من أصل يونانى .

هذا النزاع بين اليونان و إيران كان متوقعا منذ اليوم الأول الذى أدار فيه

« اگزرسيس » ظهره وعاد إلى بلاده مهزوما فى موقعة «سلاميس» . ذلك لأن إيران كانت حينذاك تتولى حراسة الطريق التجارى فى آسيا حتى شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، كما كانت اليونان تتولى حراسة البقية الباقية من هذا الطريق العظيم ،فكان من الطبيعى أن تتحرك الأطماع فى نفوس هاتين الأمتين ، فتجعل الحرب واقعة لا محالة بينهما ؛ فلما وجدت اليونان زعيما يتولى قيادتها ويجمع أشتاتها ، أخذت تندفع فى غير وجل الى محاربة إيران ونزالها .

وعبر« الاسكندر » مضيق « البسفور » دون أن يعترضه معترض، وكان يصطحب معه قوة لا يعتد بها فى نظر الأسيويين ، قوامها ثلاثون ألف راجل وخمسة آلاف فارس[1] .وحاول الجيش الفارسى ، وعدده أربعون ألف مقاتل ،أن يصدهم فى مكان أسمه « جرانيقوس » ، فلما انجلت الموقعة ، فقد اليونان ١١٥ رجلا وفقد الفرس ٢٠٫٠٠٠ رجل ؛ ثم تقدم « الاسكندر » متجها إلى الجنوب والشرق ، فما زال يأخذ المدن تلو المدن ، ويتلق الجزية فى أثر الجزية ، حتى انقضت على ذلك سنة كاملة ، استطاع فيها « دارا الثالث » أن يجمع جيشاً من المحاربين والمغامرين بلغ ٦٠٠٫٠٠٠ مقاتل ، عبر بهم نهر الفرات على جسر من القوارب فى خمسة أيام ، وقالوا إنه حمل خزائنه أثناء هذه الموقعة فلم يكف لنقلها إلا ستمائة رأس من شداد البغال وثلثمائة رأس من خيار الأبل والجمال . فلما التق الجيشان فى مكان اسمه « إيسوس » ، ولم يكن لدى الاسكندر إلا جيشه الذى بلغ الثلاثين ألف مقاتل ، شاءت الأقدار أن تبتلى « دارا» بالغباء الذى يعجل

---

(١) يقول جوزيفوس : « ان جميع الاسيويين كانوا يعتقدون أن المقدونيين ان يستطيعوا أن يجرؤوا على محاربة الفرس بسبب كثرتهم وزيادة عددهم» .

بنهايته ، فاختار للحرب مكانا ضيقا جداً لا يسمح إلا لجماعة صغيرة جداً من جيشه فى الاشتراك فى القتال ؛ فلما انتهت الموقعة وجد المقدونيون أنهم فقدوا ٤٥٠ من رجالهم ، ووجد الفرس أنهم فقدوا ٤٥٠،٠٠٠ رجل قتل أكثرهم ساعة التقهقر والانهزام . وتعقب الاسكندر الناجين من الفرس وعبر مجرى من الماء تكدست به أجساد قتلاهم ، واستمر «دارا» فى هربه ، يهيم على وجهه ، واضطر إلى أن يترك وراءه أمه العجوز وزوجته الجميلة وابنتين شابتين،ليس لهن من عتاد إلا عربته الملكية وسرادقه الفاخر الجميل . وتلقى الاسكندر هؤلاء النساء ، وعاملهن معاملة فيها كثير من قواعد الفروسية والرجولة ، مكتفيا بأن يتزوج واحدة من الابنتين ، وقد أدهش مسلكه هذا سائر المؤرخين اليونانيين،وروى لنا أحدهم وهو « كوينتوس كورتيوس » أن والدة « دارا » قد أعجبت بمسلك الاسكندر أيما إعجاب، وأحبته حباً جماً، بلغ من شدته أنه عندما بلغها موته كفت عن الطعام والغذاء حتى أدركها الموت والفناء . . . !!

وحاول الشاب الفاتح فى ذلك الوقت محاولة جريئة ، شاء بها أن يستولى على جميع الأقطار الواقعة فى غرب آسيا ؛ ولكنه لم يشأ أن يتقدم إلى أبعد مما وصل إليه إلا بعد ما فرغ من تنظيم فتوحاته وتأمين طرق مواصلاته ، وخرج إليه سكان « بابل » وسكان « القدس » ورحبوا بلقائه ، وقدموا إليه مدينتيهما وما ادخروه فيهما من ذهب وفضة ، فأحسن «الاسكندر» لقاءهم وجازاهم خير الجزاء ، وأباح لهم بناء معابدهم التى أمر « اگزرسيس » بهدمها من قبل . وقد بادر « دارا » فأرسل إليه رسالة يعرض عليه فيها الصلح واستعداده لأن يدفع إليه مبلغاً طائلا

من المال [١] وأن يزوجـه ابنته ، وأن يعترف له بالسيادة على جميع الأراضى الأسـيوية الواقعة فى غرب نهر الفرات ، كل ذلك فى مقابل أن يرد إليـه الاسكندر أمه وزوجه وبناته ، ويقبل المصالحة وإنهاء الحرب والقتال .

وقد ورد عن « پارمنيو » ـ وهو القائد التالى للاسكندر على جيوش اليونان ـ أنه قال للاسكندر : « لو كنت فى مكانك لما ترددت فى قبول هذه العروض السخية ، ولشعرت بالسعادة التامة فى إنهاء الحرب على هذه الصورة المشرفة ، دون أن اضطر إلى الزج بجيشى فى هزيمة محتملة » . ولكن الاسكندر أجاب على ذلك بقوله : « إنى على استعداد لأن أفعل كل ذلك لو كنت پارمنيو ولم أكن الاسكندر ... ! ! » وأرسل إلى « دارا » يخبره بأن شروط الصلح مرفوضة رفضاً تاما وأنها لا تعود عليه بشىء من الفائدة ، لأنه يملك من الأراضى الأسيويه جميع الأنحاء التى عرضها عليه ، ولأنه يستطيع أن يتزوج ابنته عند ما يروق له ذلك . وقد أحس « دارا » باليأس من مجـادلة هذا القائد المنطقى فانصرف مضطراً إلى جمع جيش آخر لمحاربته من جديد .

فى هذا الوقت استطاع « الاسكندر » أن يستولى على مدينة « صور » ، كما استطاع أن يضم « مصر » إلى حوزته ، فلما تم له ذلك أخذ يخترق أراضى الامبراطوريه الفارسيه العريضة قاصداً الاستيلاء على عواصمها البعيدة . وسارت جيوشه من مدينة « بابل » ووصلت بعد عشرين يوما إلى مدينة « السوس » واستولت عليها دون أن تصادف شيئاً من المقاومة ، ثم خرجت منها بسرعة إلى

---

(١) قدروا هذا المبلغ بما يساوى ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ دولارا .

مدينة « پرسپوليس » ، وفاجأت حراسها وأخذتهم على غرة فلم يتمكنوا من نقل خزائنها والاثقال بها . وهناك ارتكب « الاسكندر » عملا مشيناً لطخ به حياته الحافلة بجلائل الأعمال ، فقد تمادى فى غيه ارضاء لـ « تاييس » وأعرض عن الاستماع إلى نصيحة قائده « پارمنيو » فأمر بإحراق القصور والغارة على المدينة ونهبها (١) ، فلما فرغ من ذلك ونشط الجند ، لما أصابهم من عطاء وما استولوا عليه من أسلاب ، خرج الاسكندر على رأسهم صوب الشمال لينازل « دارا » فى موقعة حاسمة أخيرة .

واستطاع « دارا » أن يجمع من ولاياته الشرقية جيشاً جديداً بلغ عدده مليونا من الرجال ، كان بينهم الفرس والبابليون والآشوريون والأرمن والبلخيون والصغد والهنود والساكا والكاپادوسيون ، وتحقق من أخطائه السابقة فلم يزودهم ، كما كان يفعل من قبل بالقسى والسهام ، بل زودهم فى هذه المرة بالرماح والنصال والدروع والخيول والفيلة والعربات ذات المناجل الدائرة التى بنيت لتحصد العدو حصداً كما تفعل المناجل فى حقول الحنطة أو الشعير ... وبدت آسيا بهذه الجموع الحاشدة ، كأنها تريد أن تبذل هذا الجهد الأخير لكى تحافظ على كيانها فى وجه أوروبا الناشئة الناهضة .

واندفع الاسكندر بسبعة آلاف فارس وأربعين ألف راجل ، وتلاقى مع

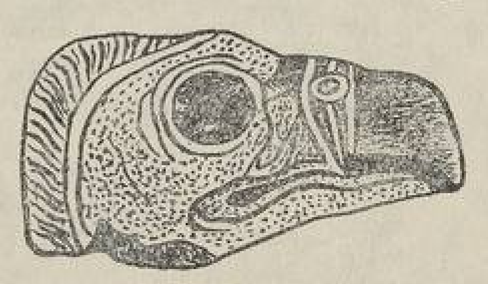
---

(١) يتفق المؤرخون « بلوطارخ » و « كوينتوس كورتيوس » و « ديودوروس » على صحة هذه الرواية ، وهى لا تؤذى سمعة الاسكندر فى شىء ، ولكننا مع ذلك نحس بشىء من الشك فى صحة تفاصيلها .

هـذا الجيش الفارسى المختلط فى مكان اسمه « گوا گميلا [١] » فاستطاع بقيادته الحازمة وأسلحته الصارمة وشجاعته الدائمة أن يوقع بخصمه ويشتت عدوه فى يوم واحد .

واضطر « دارا » مرة أخرى إلى الهرب والنجاة بنفسه ، ولـكن بعض قواده نقموا عليه جبنه وتتبعوه حتى قتلوه فى خيمته . وقد أمر « الاسكندر » بقتل هؤلاء القواد الخائنين ، ثم حمل جثة « دارا » فى جنازة رسمية إلى مدينة « پرسپوليس » ودفنها هنالك بنفس المراسم التى كانت معروفة لدى ملوك « الا كمينيين » الأسبقين !

واجتمع الفرس بعد ذلك حول أعلام الغازى اليونانى ، وراقهم نضرة عوده وكثرة كرمه وجوده ، فدانوا له بالطاعة بعد ذلك، وأصبحت فارس ولاية من ولايات الامبراطورية المقدونية ، لا تحتاج من الاسكندر إلا إلى حامية قوية يتركها فيها ، ليخرج بعد ذلك غازيا وفاتحا لبلاد الهند .



رأس عقاب من الزجاج الملون
وجد بين آثار « الدولة الاكمينية »

---

(١) مدينة تبعد عن « أربلا » بمسافة ستين ميلا ، ومن هنا سميت المعركة أحيانا بموقعة « أربلا ».

كشاف بالأسماء

جدول الرسوم

الواردة فى الصفحات السابقة

الكتاب التالى

الكتاب التالى من كتب « المكتبة الفارسية » هو الترجمة العربية لكتاب :

« تاريخ الآداب الفارسية »

تأليف

المستشرق الكبير « إدوارد براون »

أستاذ الآداب العربية والفارسية بجامعة كامبردج سابقاً

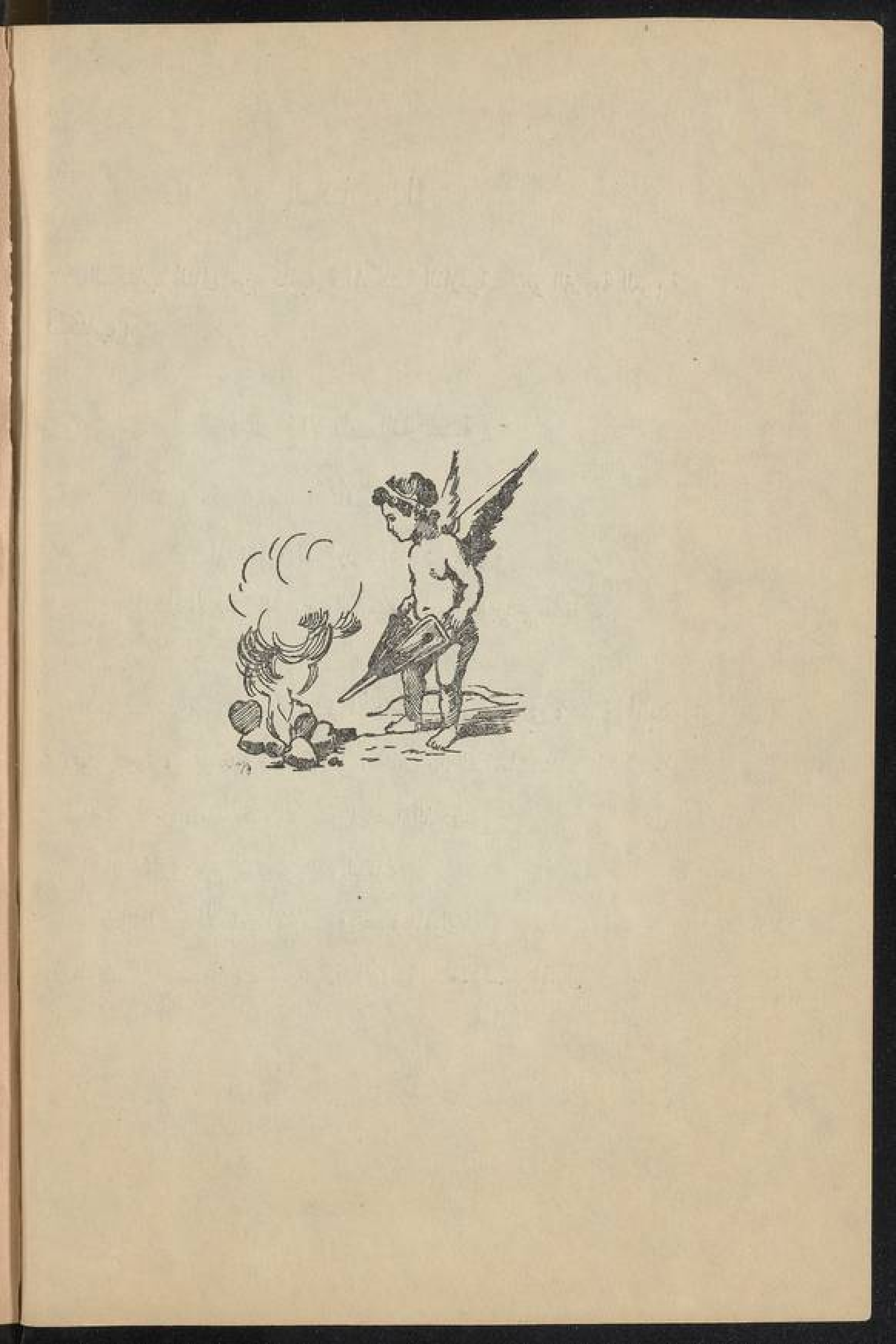
وهو عبارة عن موسوعة كاملة فى الأدبين الفارسى والعربى ، تقع فى أربعة مجلدات كبيرة ، يربو عدد صفحاتها على الألفين من الصفحات :

المجلد الأول : منذ أقدم الأزمنة إلى عهد الفردوسى

المجلد الثانى : من الفردوسى إلى السعدى

المجلد الثالث : الآداب الفارسية فى عصر المغول

المجلد الرابع : الآداب الفارسية فى الأزمنة اللاحقة لعصر المغول



الناشر
مكتبة الخانجي
بشارع عبد العزيز بمصر

